الأربعون الزهدية

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين



مؤسسة السماحة

الأربعون
الزهديـــــة



الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بطاقة الكتاب

اسم الكتاب : الأربعون الزهدية
المؤلف : الشيخ د / جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشر : شركة السماحة للنشر والتوزيع الكويت

الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة

عدد الصفحات :

عدد الملازم :

مقاس الكتاب : ١٧× ٢٤

رقم الإيداع :

شركة السماحة للطباعة والنشر
والتوزيع - الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان





الشَّيْخ الدُّكْتور:
جاسِمُ بْنُ محمد بن مُهَلْهِلِ الْيَاسِين





مؤسسة السماحة

الطبعة الثانية

١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥ م

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

في الكويت من: شركة السماحة ـ الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من: بدور للثقافة والترجمة



إِلَىٰ **وَالِدَتِي مُنِيرَةَ**، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ .

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَىٰ الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَىٰ الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَىٰ الآخَرِينَ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَىٰ فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِها – رَحِمَهَا اللهُ – بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أمّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالممَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ – فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْل – خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي – رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ. وَأَسْأَلُ الله – سُبْحَانَهُ – أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّىٰ بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئًا، حَتَّىٰ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي أَهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفَرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْنـًا فِي صَبْرِهَا عَلَـىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أَوْلادِي جَمِيعـًا، ذُكُوراً وَإِنَاثـًا.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلِّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعـًا مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

****



الإهداءُ شعْرًا

أمَّــاهُ كُنْــتِ مُنِيــرَةً وَمَنَــارَةً … عُلْيَـا وَصَــرْحـًا ثابـتَ الأَرْكَـانِ

قَــدْ كُنْـتِ مَدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَـا … لِـصَنَائِعِ المَعْــرُوفِ وَالإِحْـسَانِ

قــَدْ كُنْـتِ لِلأَيْتَــامِ أُمَّــا بَــرَّةً … وَالجَــارِ وَالمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَــانِ

أَرْضَـعْتِنَا الأَخْـلاق شَـهْدَاً سَلْـسَلاً … تَــدْنُو ثِمَــارُ قُطُوفِهَــا لِلْجَــانِي

عَلَّمْتِنَــا الـصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً … وَالقَوْلَ لِلحُسْنَىٰ وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

أبَتَــاهُ قَــدْ رَبَّيْتَنِــي وَأَحَــطْتَنِي … برِعَايَــةٍ فِــي غِبْطَــةٍ وَأَمَــانِ

وَفَّـرْتَ أَسْـبَابَ الـسَّعَادَةِ وَالهَنَـا … فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَىٰ الأَقْرَانِ

فَجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَيْـرَ جَزَائِـهِ … وَأُسْــكِنْتَ فِــي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَــانِ

* * *

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا … بالفَــضْـلِ لاَ فَــظٍّ وَلاَ مَنَّــانِ

كَــمْ ذَا تُقَابِــلُ بِالــسُّـرورِ تَــدَلُّلِي … بمَحَبَّــةٍ وَبرَأْفَــةٍ وَحَنَــانِ

أَحْبَبْتَنِــي قَـرَّبْتَنِــي رَبَّيْتَنِــي … بالعِــزِّ فِـي ثِقَــةٍ وَفِـي اطْمِئْنَـانِ

* * *

أرَفيقَتِــي كُنْـتِ الـشُّعَاعَ إِذا دَجَـا … لَيْـلُ الحَيَـاةِ بمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ

قَـدْ كُنْـتِ خَيْـرَ شَرِيكَــةٍ وَمُعِينَـةٍ … فِـي البِـرِّ عِنْـدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ

الـصَّبْرُ فِيـكِ مَـعَ الوَفَـاءِ سَـجِيَّةٌ … بتَعَـاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

* * *

يَــا حَبَّــذَا **أفْــلاذ أكْبَــادٍ** بِهَــا … كَــمُلَ المُــرَادُ وَقَــرَّتِ العَيْنَـانِ

فَاحْفَظْ مُعَاذاً وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** أَمَدَ الزَّمَانِ **وَعَابِدَ** **الرَّحْمَنِ**

لاَ زَالَ **عَبْدُ اللهِ** فِي حِفْظٍ وَلاَ زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ

وَلْتَحْظَ **عَائِشَةٌ** **وَفَاطِمَةٌ** بِمَا قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ

وَاحْفَظْ **هَيَا** **وَمُنِيرَةً** يَا رَبَّنَا مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

* * *

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ

صَلَّىٰ الإِلٰهُ عَلَىٰ **النَّبِيِّ** **مُحَمَّدٍ** وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

****

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على إمام الزاهدين، وقدوة الناسكين، حبيب الحق، وسيد الخلق، سيدنا محمد ﷺ:

أحبتي في الله ..

تململنا من السياسة والاقتصاد والاجتماع [١] ، وما أكثر دروبها، وأشد إعضالها..!! تفنى النفوس ولا تفنى الحاجات، ولله در القائل:

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجةُ من عاش لا تنتهي

فما لنا لا نرجع، ونروح، ونفيء إلى قوانين الآخرة، وإلى مخاطبة القلوب والتي هي عمود الأمر وطنبه، وصدق الله إذ يقول عن الحوادث الظاهرات، وأثرها في القلوب المضمرات: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج: ٤٦)

إن الغواشي والمآسي والوقائع الدنيوية إن تجاوزت منهج ربها وسارت في غير مرضاته، وعلى غير وحيه غشت القلوب والأفئدة، ورانت عليها، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المطففين).

ووهمٌ من ظن أن الوقت ليس وقت مخاطبة قلوب، وإنما هو وقت الأسباب والمسببات الدنيا، فنقول: صدقت، إن حالنا يتغير بتغير الأسباب والمسببات الدنيوية، ولكن كيف تتغير هذه الأسباب والمسببات؟

---

(١) وقد مضت لنا مقالات كثيرة تحليلية عن وقائع الأحداث الحاصلة التي تمر بها أمتنا وبعد أن استقصينا الظواهر الحاصلة، والسيناريوهات المتوقعة، والنتائج المنتظرة، بحسب قوانين الدنيا من الأسباب والمسببات والتدافع والتوازن!

إنها تتغير في تصوراتنا ، وفي وعينا،وفي قلوبنا، ثم تنعكس بعد ذلك على ظاهر حياتنا وهذا الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

إذن فلنبتدئ بالباطن نهذبه، ندربه، ونقربه لربه، ونميط عنه لثام الدنيا إلى جوهر التقوى .. ومن ثم كانت لنا هذه الوقفة الزهدية في ذلكم المجموع العاجل الذي أسميناه: «**الأربعون الزهدية**».

حقائق في الزهد :

أحبتي في الله:

لست في مقام لتأصيل بقدر ما أنا في مقام تذكير لنفسي ولكم ولمن وراءنا من أحبتنا وسائر المسلمين...

فأقول : إن الزهد كلمة بارقة نسمعها ونقرأها ونعرفها لفظاً، بينما هي تستحق منا تعقلاً وتفهماً وتبصراً بمعناها ومقتضاها، لأن العاقل لا يمارس إلا مايعقل، ولا يؤمن إلا بما يصدق ولا يركن إلا لما يقع في قلبه، وعليه فإن حقيقة الزهد هي تشاغل القلب بالآخرة مع الأخذ بحظ النفس في الدنيا.

وقد جاءت آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ لتقرر هذه الحقيقة، حيث تصب في حقيقة حث العباد على التشاغل بالآخرة والزجر عن التشاغل بالدنيا إلى حد يفضي إلى إهمال الآخرة والتواني في طلبها ، ولأن النفس بطبيعتها تركن إلى المادة، وتتشبث بلذات الشهوات في الحياة الدنيا، فقد جاءت آيات القرآن منبهة على حقيقة الدنيا ومرغبة في ملذات وطيبات الآخرة، مع توجيه الحواس وتثقيف الشهوات وإشباع الرغبات بالبدائل الاجتماعية والاقتصادية والصحية بلا ضرر ولا ضرار.

وعلى ذلك يتضح أن القرآن لم يذم الدنيا مطلقاً؛ لأنها عبارة عن أعيانٍ موجودة للإنسان فيها حظ، بل ما خلقت إلا له، لكي يوظفها فيما خلق له، من توحيد الله وعبادته، والمزاوجة بين الدنيا والآخرة والنفس والروح.

ولما سبقت الإشارة إلى نزوع الإنسان إلى الدنيا وركونه إليها، وتشاغله بها بحكم الطبع والوضع والجبلَّة قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ (آل عمران).

من هنا جاءت زهادات النبي ﷺ قدوة لذوي العزائم منا، وجاءت إشارات وعبارات وحكايات السلف الصالح دافعاً للعزائم المجدين، وحاثة لهمم المشمرين في سلوك درب الطاعات، والأخذ بعزائم الأمور؛ ولأن زماننا هو زمن العولمة العصرية، والتجارب المادية، فقد أردت تذكيركم ونفسي بطرق من عولمة الزهاد الروحية، وتجاربهم الأخروية، وقد دعا الله إليها في كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ (الصف)، أسأل الله أن ينفعني به وإياكم...

وقد صنفنا الكتاب تحت هذه العناوين :

المبحث الأول: بين ضيق الدنيا ورحاب الآخرة .

المبحث الثاني :كن ربانيًا .

المبحث الثالث :جواهر من الوعظ .

المبحث الرابع :التفكر والاعتبار .

المبحث الخامس :عقد نضيد في غرر التحاميد لله .

المبحث السادس :آداب قرآنية .

المبحث السابع :التوَّابـــــون .

المبحث الثامن :مهلكات السجايا والصفات .

المبحث التاسع :محبة الله والرضا به ..

المبحث العاشر :الصبر .

خاتمة في:الترغيب والترهيب .

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

❊ ❊ ❊ ❊

المبحث الأول
بين ضيق الدنيا ورحابة الآخرة
١ ـ سياحة في رحاب عالم الزهد والرقائق

أحبتي في الله:

قال العلماء: اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان فيها حظ من مطعوم، ومشروب، ومنكوح فليأخذ بحظ من ذلك زاداً لراحة بدنه السائرة إلى الله، فإنه لا يبقى إلا بهذه المنافع، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة، وقع في الندم؛ لأنه يخرج به عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الأخرى، فيفوت المقصود، ويغدو كمن أقبل على ناقته يطعمها ويلاطفها حتى فاته الركب، وبقى وحيداً في بادية المعالف فريسة للسباع هو وناقته..

ولله در رسولنا ﷺ وصالح سلفنا وأئمة الهدى في ديننا؛ فإنهم وعوا وفقهوا فارعووا عن التشاغل بالوسائل عن المقاصد، وانتبهوا للغايات، وتوسطوا في الإقدام والإحجام والأخذ والعطاء، وجعلوا الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم، وهذا طرف من حلمهم وزهدهم: جاء في الأثر أن الزهد ليس بتحريم الحلال، أو الإعراض عن المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يدى الله أغنى عما في يديك.

وقيل للزهري: ما الزهد؟

قال: إنه ليس تشعيث اللمة، ولا قشف الهيئة ولكنه صرف النفس عن الشهوة.

وقيل لبعض السلف : ما الزهد في الدنيا؟

قال: أن لا يغلب الحرام صبرك، ولا الحلال شكرك.

وقال ابن السماك: الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن أصابته الدنيا لم يحزن، يضحك في الملا، ويبكي في الخلا.

أحبتي في الله:

ها نحن ذا نفاكه أصحابنا، ونلاعب صبياننا،و نمتر[١] ضرع دنيانا، هلا تبصرنا حال الآخرة، ولاحظنا بعين البصيرة نعيمها ولذاتها وخيراتها، هلا علمنا حقيقة الدنيا وأنها دار أولها فوت، وآخرها موت، وهي ظل زائل، وخيال زائر، وإنها كما قال الله تعالى فيها: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ ﴾ (الحديد: ٢٠).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤ ﴾ (يونس).

وقال سبحانه: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ﴾ (الكهف).

وهذا رسول الله ﷺ يقول: «**ما لي وما للدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»[٢].

---

(١) متر الضرع: أي جاءه على حالة يمهد بها لحلبه، وامتراء الضرع: أي جذبه للحلب .

(٢)الترمذي في الزهد (٢٢٩٩)، وابن ماجة في الزهد (٤٠٩٩)، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٣٥٢٥) كلهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وسأل رجل علي بن أبي طالب أن صف لنا الدنيا فقال : « **ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن**».

وقيل لبكر بن عبدالله المزني: صف لنا الدنيا، فقال:

«**ما مضى منها فَحُلْم، وما بقي فأماني**».

وقيل : الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، يفصل الحق من الباطل.

وقال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض، قد هلك فيه الأولون والآخرون، فإن استطعت أن تجعل سفينتك تقوى الله، وعدتك التوكل على الله، وزادك العمل الصالح، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك.

ولله در خطباء وشعراء الإسلام الذين خطت أقلامهم، وتوافرت قصائدهم في ذكر حقيقة الدنيا..

قال الشاعر:

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشفت ... له عن عدوٍّ في ثيابِ صديق

وما الناسُ إلا هالكٌ وابن هالكٍ ... وذو نسبٍ في الهالكين عريق

وقال أبو العتاهية أيضاً:

هي الدُّنيا إذا كَمُلَتْ ... وتَمَّ سرورها خَذَلَتْ

ستفعل في الذينَ بَقَوا ... كما فيمن مضى فَعَلَتْ

* * * *

٢ ـ خذوا أهبتكم.. فالركب راحل

أحبتي في الله:

أوصيكم ونفسى بأخذ الأهبة، وحزم العدة، ونبذ الغفلة، وشد الهمة في غرس بذور الطاعة، ودرء شوك الدنيا، وقطع علائقها الواهنة، فوالله إن الآخرة لهي الحيوان، وهي موئل الخلد إما نارٌ أبدًا، أو جنة أبداً..

وكأني بالجنة قد أسقطت قوانين البنوك في الدنيا، وصادرت أرصدتها، وراحت تعلن عملتها في دار كرامتها، مضى الدرهم والدينار، وقام عنهما الذكر والاستغفار، وأغلقت بورصة الدنيا، وقامت بورصة الآخرة.

وتحولت مؤشرات الأسواق من عواصم المال، إلى طاعة ذي الجلال.

يا هذا مات السابقون والأولون، فهل أنت خالد مخلد؟

يُروى أن النبي ﷺ كان إذا دخل مقبرة قال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[١].

ولله در يزيد الرقاشي لما جلس بين المدينة والمقبرة، فقيل له: ما أجلسك هنا؟

قال: انظر إلى هذين المعسكرين، معسكر يقذف بالأحياء ـ وعنى بهم أهل المدينة ـ ومعسكر يقذف بالأموات ـ وعنى بهم أهل القبور ـ، ثم صاح بأعلى صوته: «**يا أهل القبور الموحشة، التي نطق بالخراب فناؤها، ومُهِّد بالتراب بناؤها،**

---

(١) مسلم في الطهارة (٣٦٧)، والنسائي في الطهارة (١٥٠)، وأبو داود في الجنائز (٢٨١٨)، وابن ماجة في الجنائز (١٥٣٦) من حديث سليمان بن بريدة، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٦٥٢، ٨٩٢٤)، ومالك في الطهارة (٥٣)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فيما عدا ابن ماجة كما أشرنا.

فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، لا يتواصلون تواصل الإخوان، ولا يتزاورون تزاور الجيران، قد طحنهم البلى، وأكلهم الثرى».

ولله در علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ففي الأثر أنه لما دخل مقبرة قال: «أما المنازل فقد سُكنت، وأما الأموال فقد قُسمت، وأما الزوجات فقد نُكحت، فهذا خبر ما عندنا فليت شعرى ما عندكم؟

وعن أنس بن مالك قال: لما فرغنا من دفن رسول الله ﷺ أقبلت عليَّ فاطمة فقالت: يا أنس، كيف طابت أنفسكم أن تحسوا على وجه رسول الله التراب؟

ثم بكت ونادت:

يا أبتاه! أجاب ربًّا دعاه!

يا أبتاه! مِنْ رَبِّهِ ما أدناه!

يا أبتاه! مَنْ رَبُّهُ ناداه!

يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه!

يا أبتاه! جنة الفردوس مأواه!

ثم سكتت رضي الله عنها فما زادت شيئاً.

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه فاتته الصلاة على عمر فأقبل على قبره يبكى ويطرح رداءه، ثم قال: «والله لئن فاتتني الصلاة عليك، فما فاتني حسن الثناء، أما والله لقد كنت سخياً بالحق، بخيلاً عن الباطل، ترضى حين الرضا، وتسخط حين السخط، وما كنت عياباً ولا مداحاً، فجزاك الله عن الإسلام خيراً».

ووقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه على قبر خباب، فقال: «رحم الله خبَّاباً، لقد أسلم راغباً، وجاهد طائعاً، وعاش زاهداً، وابتُلي في جسده فصبر، ولن يضيع

الله أجر من أحسن عملاً».

وقف علي رضي الله عنه على قبر أبي بكر وقد ارتجت المدينة بالبكاء عليه، ودهش القوم بقبضه كدهشتهم يوم قبض النبي ﷺ، فجاء عليٌّ مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول: « **رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم يقيناً، وأحفظهم عن رسول الله ﷺ.**

وكنتَ أرأفهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله خُلقاً وفضلاً، وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، صَدَّقْتَ رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وواسيتَه حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وسماك الله في كتابه صديقاً فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ (الزمر:٣٣)، **يريد محمداً ﷺ ويريدك.**

وكنتَ والله للإسلام حصناً، وعلى الكافرين عذاباً، كنت كما قال رسول الله ﷺ: ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، جليلاً في الأرض، كثيراً عند المؤمنين».

وقفت عائشة رضي الله عنها على قبر أبيها أبي بكر رضي الله عنه فقالت : «**نضّر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مُذلاً بإدبارك عنها، وكنت للآخرة مُعزاً بإقبالك عليها، وإن كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك، وحسن العوض منك، فعليك السلام ورحمة الله، ثم انصرفت!**

وقد دفن أبو العتاهية ابناً له فقال عند دفنه :

كفى حزناً بدفنك ثم إني ... نفضت تراب قبرك من يديّا

وكنت في حياتك لي عظات ... فأنت اليوم أوعظ منك حيا

٣ ـ جواهر.. ولكن مَنْ يعمل بها ؟

أحبتي في الله:

لله هذه الجواهر الوعظية وما أكثرها وما أعظمها، ولكن من ذا يعمل بها، فلتتهيأ، ولتفتح باصرتك، ولتعي ما يقال:

قال الحسن رحمه الله : «**من كان قوياً فليعتمد على قوته في طاعة الله، ومن كان ضعيفاً فليكف عن معاصي الله**».

وقال عليّ : «**لا تكن كمن يعجز عن شكر ما أوتى، فيبتغى الزيادة فيما بقى، وينهى الناس ولا ينتهى**».

وكان الحسن إذا وعظ يقول : «**يالها من موعظة لو صادفت من القلوب حياة! ما لكم فقدتم عقولكم، فراش نار وذباب طمع**».

وكان ابن السماك إذا فرغ من موعظة قال : «**ألسنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف!**».

وقال رحمه الله : «**الحسنة نور في القلب، وقوة في العمل، والسيئة ظلمة في القلب، وضعف في العمل**».

وكان مالك بن دينار يقول : « **ما أشد فطام الكبير وينشد:**

وتروضها من بعد ما هَرَمَتْ ومن العَنَاءِ رياضةُ الهَرَمِ! ».

وكان بعض الوعاظ يقول:

« **يا أيها المشيخة الذين لم يتركوا الذنوب حتى تركتهم الذنوب، ثم ظنوا أن تركهم لها توبة وليتهم إذْ ذهبت عنهم لم يتمنوا عودهم إليها**».

حال الخائفين من الله :

سُئِلَ عبدالله بن عباس عن الخائفين في الله فقال : «**هم الذين صدقوا الله في مخافة وعيده، قلوبهم بالخوف قرحة «واجفة»**، وأعينهم على أنفسهم باكية، ودموعهم على خدودهم جارية، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبور من أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدى ربنا موقفنا!!».

وقال عليٌّ رضي الله عنه في صفةِ الخائفين : «**ألا إن لله عباداً مخلصين، كمن رأى أهل الجنة في الجنة فاكهين، وأهلَ النار في النار معذَّبين، شرورهم مأمونة وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجَهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة لراحة طويلة، أما بالليل فصفوا أقدامهم في صلاتهم، تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم: ربنا.. ربنا! يطلبون فكاك قلوبهم، وأما بالنهار فعلماء حلماء أتقياء...**».

وقال الحسن : إن خوفك حتى تلقى الأمن خير من أمنك حتى تلقى الخوف، وكان يقول: عجباً لمن خاف العقاب ولم يكف، ولمن رجا الثواب ولم يعمل.

وقال عليُ لرجل : ما تصنع؟ فقال: أرجو وأخاف .

قال عليُ : من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب إليه.

وقالوا : وعد من الله لمن خافه أن يدخله الجنة، قال تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ (الرحمن).

وفي الأثر : « **من كانت الدنيا همه، طال في الآخر غمه، ومن خاف ما بين يديه ضاق ذرعاً بما في يديه**».

وعن المقبري : يا بن آدم إذا عملت حسنةً فاله عنها فإنها عند من لا يضيعها، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ (الكهف).

وإذا عملت سيئة فاجعلها نصب عينيك..

وسأل المغيرة الحسن قال: يا أبا سعيد! كيف نصنع بمجالسة أقوام هاهنا يحدثوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟

قال: أيها الشيخ: إنك والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

وفي الأثر : المؤمن بين مخافتين من ذنب قد مضى لا يدري ما يصنع الله فيه، ومن عمر قد بقى لا يدري ماذا يصيب فيه من المهلكات.

حاسبوا أنفسكم.. قبل أن تحاسبوا :

قال عمر بن الخطاب : حَاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا فإنه أهون، أو قال: أيسر لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنُوا، وتجهزوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ (الحاقة).

وعن الحسن قال : إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفاجأ بالشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ماأردت إلاَّ هذا، ومالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله.

وعن بكر بن عبدالله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم:٧١)، ذهب عبدالله بن رواحة إلى بيته فبكى فجاءت امرأته فبكت، فجاء الخادم فبكى، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون، فلما انقطعت عبرته قال: يا أهلاه، ما

الذي أبكاكم؟ قالوا لا ندري، ولكن رأيناك بكيت فبكينا، قال: إنه أنزلت على رسول الله ﷺ آية ينبئني فيها ربي أني وارد النار، ولم ينبئني أني صادرٌ عنها، فذلك الذي أبكاني، وفي رواية: «**علمت أني وارد النار، فلا أدري أناج منها أم لا** ».

الله.. الله.. فيمن تبكي السموات والأرض لفقدهم! :

وعن ثور عن مولى لهذيل قال : ما من عبد يضع جبهته في بقعة من الأرض ساجداً لله إلا شهدت له بها يوم القيامة، وإلا بكت عليه يوم يموت، قال: وما من منزل ينزله قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم.

وعن أنس بن مالك قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها على بعض، يا جارة: هل مر بك اليوم عبد يصلي عليك لله، أو ذكر الله عليك؟، فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم رأت عليها بذلك فضلاً .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إذا مات العبد الصالح بكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء إلى الأرض، ثم قرأ : ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾ (الدخان: ٢٩).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما من بقعة يذكر اسم الله عليها بصلاة أو بذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين، وما من عبد يقوم فيصلي إلا تزخرفت له الأرض.

وفي الأثر : « **إن الشاب المؤمن لو يقسم على الله لأبره**».

وعن عقبة بن عامر مرفوعاً قال: يعجب ربنا تعالى للشاب ليست له صبوة.

وفي الأثر: إن الله يقول : « **إن عبدي إذا أطاعني فإني أستجيب له قبل أن يدعوني، وأعطيه قبل أن يسألني، وإن عبدي إذا أطاعني فلو أجلب عليه أهل السموات**

وأهل الأرض جعلت له المخرج من ذلك، وإن عبدي إذا عصاني فإني أقطع يديه من أبواب السماوات وأجعله في الهواء لا ينتصر من شيء من خلقي».

وعن عقبة بن مسلم قال : إذا كان الرجل على معصية الله – أو قال: على معاصي الله – فأعطاه الله ما يحب على ذلك، فليعلم أنه في استدراج.

وعن سفيان عن ابن أبي نجيح عن أبيه قال : لو أن المؤمن لا يعصي،ثم أقسم على الله عز وجل أن يزيل له الجبل لأزاله.



٤ ـ زادُ الآخـــرة

أحبتي في الله:

لقد أزف الرحيل، وليل العمر على وشك الأفول، ونضارة الشباب إلى تفضي، وعبث الصبا إلى تولى، وها نحن قادمون إلى غد لا شفيع فيه، ولا نسب ولا واسطة إلا لمتزود، ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ١٩٧).

لا نسب اليوم ولا خلـة اتسع الخِرقُ على الراقع

تزودنا جميعاً بلا استثناء غائبنا وحاضرنا، قاصينا ودانينا من أزواد الدنيا، مطعومها ومشروبها، وملبسها ومنكحها، وصوبها ومزنها، وزهرتها .

فماذا بعد؟! بالله قولوا ماذا بعد..

أحبتي في الله:

هلا تزودنا للآخرة، هلا طمعنا في مطعومها واشرأبت نفوسنا لمشروبها طمعنا في مطعوم ومشروب الدنيا؟ أو حتى نصفه أو نصيفه، هلا يمَّمْنَا أعناقنا نحو نعيمها، وهل أعددنا نصيراً لنا من نارها، هل... وهلا وهلا.

أين نحن من طلاب الآخرة؟

الذين تفيؤوا بظلها وقدموا بين يديها، وراحوا يلملمون بساط الدنيا، ويبسطوا فراش الآخرة..؟!

أين نحن من علقمة الأسود؟ لما سُئل:

كم تعذب هذا الجسد الضعيف؟ فقال: لا تنال الراحة إلا بالتعب.

وسئل آخرون من طلاب الآخرة: أن لو رفقت بنفسك؟! فقال : الخير كله فيها

أكرهت النفوس عليه، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره**»[1].

بل أين نحن من مسروق ابن الأجدع ، إذ قيل له: لقد أضررت بدنك.

قال: كرامته أريد.

وقالت له امرأته فيروز ـ لما رأته لا يفطر من صيام، ولا يقعد عن صلاة ـ: ويلك يا مسروق!! أما يعبد الله غيرك؟ أما خُلِقت النار إلا لك؟!

من يبادر بالعمل الصالح ؟ :

أحبتي في الله..

ماذا أقول في المبادرة بالعمل الصالح، وها نحن ذا تمضي بنا السنون، ويختر منا الدهر، وتحاصرنا السنون، ولا ننفك من دفن حبيب حتى ننعي غيره حبيباً، هو المدفون اليوم، ونحن اللاحقون غدًا، فالبدار البدار، والعجلة العجلة قبل أن لا عمل، وقبل انتهاء الأجل، كم سمعت وإياكم قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

فهل بالله سارعنا..! وهل تعجلنا..وهل بالصالحات بادرنا..؟!

وكثيراً ما نتلو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ (الواقعة)، فأين منا السابقون بالصالحات والمسارعين إلى الطاعات؟! أين وأين وأين؟!

لله در سلفنا بادروا بالصالحات، وتعجلوا الطاعات، وباعوا لله أنفسهم وأوقاتهم وكنزوهم، فربحوا نعيم جناته، وعميم مرضاته، والثناء الحسن الجميل.

---

(١) مُسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٠٤٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٤٨٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وأحمد في باقي مسند المكثرين (١٢١٠١، ١٣١٧٧، ١٣٥١٩)، والدارمي في الرقاق، كلهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

ولله در الحسن البصري وهو يهتف بإخوانه :

« بادروا بالعمل الصالح قبل حلول الأجل، فإن لكم ما أمضيتم لا ما أبقيتم».

وصدق رسول الله ﷺ في قوله: **« ابن آدم اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»**[(١)].

وقال الحسن : صم قبل أن لا تقدر على يوم تصومه، كأنك إذا ظمئت لم تكن رويت، وكأنك إذا رويت لم تكن ظمئت.

وكان يزيد الرقاشي يقول زاجراً نفسه :

« يا يزيد من يصوم عنك أو يصلي عنك، أو يترضي لك ربك إذا مت».

وهذا خالد بن معدان يقول :

«إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر» .

الحض على طاعة الله :

أحبتي في الله :

وليكن لي ولك أخي المسلم في رسول الله ﷺ خير أسوة حيث بادر العمل وترك الليت وسوف، وكان يبادر نومه كما روى أحمد عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ علمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال:

« قل حين تصبح: لبيك اللهم لبيك وسعديك، والخير في يديك ومنك وبك وإليك، اللهم ما قلت من قول، أو نذرت من نذر، أو حلفت من حلف، فمشيئتك

---

(١)ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (١٠٩) جـ١/ ١١١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بين يديه، ماشئت كان ... أسألك اللهم الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الممات، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقًا إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة»[١] .

ثم احذر عليك يا أخي الفوت والضياع قبل غرس ثمرة لك في الآخرة، تقيتك يوم لا قوت وتظلك يوم لا ظل إلا العمل الصالح، فاحذر الغبن وانتبه كما قال النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ الصحة والفراغ**»[٢] .

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال : «**ما تنتظر من الدنيا؟ إلا كلاً محزناً، أو فتنة تنتظر؟**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**هل تنتظرون إلا فقرًا مُنسيًا، أو غنىً مُطغيًا، أو مرضًا مُفسدًا ، أو هرماً مفنداً، أو موتا مجهزاً، أو الدجال، فشر غائب يُنتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**»[٣] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : «**كم من مستقبل يوم لا يستكمله ومنتظر غد لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره**»[٤] .

وعن ابن المبارك عن ثمامة السلمي أنه أوصى قومه قائلاً: «**أي قوم أنذرتكم سوف أعمل، سوف أصلي، سوف أصوم**»[٥] .

---

(١) أحمد في مسند الأنصار (٢٠٦٧٨).

(٢) البخاري في الرقاق (٥٩٣٣)، والترمذي في الزهد (٢٢٢٦)،وابن ماجة في الزهد (٤١٦٠)، وأحمد في مسند بني هاشم (٢٢٢٤)، والدارمي في الرقاق (٢٥٩١)، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الترمذي في الزهد (٢٢٢٨)، وقال عنه: هذا حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٥) انظر عن هذه الآثار وغيرها في كتاب الزهد لابن المبارك «باب التخصيص على طاعة الله»، تحقيق الأعظمي، ط.دار عمر بن الخطاب: الهند.

وعن عبدالله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، وعد نفسك في أهل القبور**»، فقال لي ابن عمر: « **إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غداً**»(١) .

وقال الله سبحانه حاضاً على الطاعة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ (الشرح)، وقال سبحانه: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ (الحجر).

قال العلماء : اليقين: الموت، وكم وصى الله عباده بالتقوى كما قال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

قال عبد الله بن مسعود : « **حق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُشْكَر فلا يكفر، وأن يُذكر فلا ينسى**».

وقال هرم بن حيان : ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها.

وهذا عمرو بن عتبة بن فرقد يخرج على فرسه فيقف ليلاً على القبور فيقول:«**يا أهل القبور، قد طويت الصحف، وقد رفعت الأعمال، ثم يبكي ثم يصفن بين قدميه حتى يصبح، ثم يرجع فيشهد صلاة الصبح**».

وحدثنا حفص عن أبي مالك عن أبي حازم قال: مررتُ مع أبي هريرة رضي الله عنه على قبر دُفن حديثاً فقال:«**الركعتين خفيفتين مما تحقرون زاد هذا هما أحب إليه من بقية دنياكم**»(٢) !

---

(١)البخاري في الرقاق (٥٩٣٧)، والترمذي في الزهد (٢٢٥٥)، وابن ماجة في الزهد (٤١٠٤)، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٤٥٣٤، ٤٧٦٠، ٥٨٨١).

(٢)مصنف ابن أبي شيبة ، حديث (٣) جـ٢ / ٢٧٩ .

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « **ما من أحد يموت إلا ندم**»، قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟! قال: «**إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع**»[(١)] .

وعن محمد بن أبي عميرة قال : «**لو أن عبداً خرَّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرماً في طاعة الله لحقره ذلك اليوم، ولود أن يُرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب**»[(٢)] .

وهذا أبو حازم يمر بسوق الفاكهة فيقول له : «**موعدك الجنة**»، ويمر على الجزارين يعرضون اللحوم والشحوم، فيخاطبونه: هذا لحم سمين فاشتري، فيقول: ليس عندي ثمنه، فيقولون: نؤخرك! فيقول: أنا أؤخر نفسي.

فالله الله لنا ، والله الله على حالنا من حال هؤلاء.

كلاهما طالب، وكلاهما راغب، وكلاهما يتزود وسواهم في التبضع.

غير أن طالب الدنيا غير طالب الآخرة، وزاد الدنيا غير زاد الآخرة، كما بضاعة الدنيا غير بضاعة الآخرة، وصدق الله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ (مريم).

وفي الأثر مرفوعاً : «**رحم الله قوماً يحسبهم الناس مرضى، وما هم بمرضى**»، قال الحسن جهدتهم العبادة.

وهذا مسروق يُحكى له عن تميم الداري؛ أنه رؤي ذات ليلة في مكة حتى أصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع، ويسجد، ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن

(١) الترمذي في الزهد (٢٣٢٧) .

(٢) أحمد في مسند الشاميين (١٦٩٩٢).

نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الجاثية).

وعن امرأته قالت: «**ما كان مسروق يوجد إلا وساقاه قد انتفختا من طول الصلاة**»، قالت: «**والله إني كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له**».

وسُئل صديق الأمة وأعظمها استقامة ـ أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه عن الاستقامة، فقال: «**ألا تشرك بالله شيئاً**».

وقال الفاروق عمر رضي الله عنه: «**الاستقامة أن تسقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب**».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «**استقاموا أي: أخلصوا العمل لله**».

وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: «**استقاموا: أدوا الفرائض**».

وقال الحسن: «**استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته**».

وقال مجاهد: «**استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله**».

وهذا رسول الله ﷺ يقول: «**قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلآ أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل**»[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

---

(١) مسلم في صفة القيامة والجنة (٥٠٤١)، وابن ماجة في الزهد (٤١٩١)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٩٧٤٠، ١٠٢٠٥)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والدارمي في الرقاق (٢٦١٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ ﴾ (فُصِّلَتْ).

وقـــال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤ ﴾ (الأحقاف).

وقال الله جل وعلا مخاطباً رسوله وصفيه من بين خلقه محمد ﷺ: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ ﴾ (هود).

وأمره بأن يوصي الناس بالاستقامة بعد إعلان عبوديته وخضوعه إليه فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ﴾ (فُصِّلَتْ).

ووعد الله معاشر الجن ومن ورائهم غيرهم بالسعادة والرغد إذا استقاموا فقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ ﴾ (الجن: ١٦).

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلاَّ مؤمن**»[(١)] .

أحبتي في الله:

الاستقامة : كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين ..

وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء.

والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات.

فالاستقامة إذن هي جماع الدين، وسبيله المبين لإرضاء رب العالمين، وما أحوجنا إليها في زمن ساده الاعوجاج، وعمه اللجاج، ودنى القاصي من الرذائل، وقصى

---

(١)ابن ماجة في الطهارة وسننها (٢٧٣)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢١٣٩٧، ٢١٤٠٠).

الداني من الطاعات، واحلولك ظلام الشبهات، وانبلج نهار الشهوات.

* * * *

المبحث الثاني
كــن ربانيًا

ولكن كيف يكون العبد ربانيًّا؟

نعم يكون العبد ربانيـًا إذا كان قلبه مع الله، متابعًا لرسول الله ﷺ، مجتهدًا ذا همـة، منفقًا وقته أجمع في طاعة الله، وهذا ما سنذكره في هذا المبحث بإذن الله.

٥ ـ قلوب مع اللـه (ربانية فياضة بتقوى اللـه)

القلوب أوعية ، فانظر لوعائك ماذا يحمل ، واجعله وعاء ربانيـًا .

أحبتي في الله :

نعم والله إن هذه القلـوب لأوعيـة تحـوي الخير كلـه وتحـوي ضـد ذلـك، وصـدق رسـول الله ﷺ في قولـه الجـامع: «... **ألا وإن في الجـسد مـضغة إذا صـلحت صـلح الجسد كله**»[(١)] .

وقد أعجبني ما قاله طبيب القلوب وإمام عصره في الروحانيات ابن قيم الجوزيـة في كتابه الفذ روض المحبين حيث يقول[(٢)] : « **أمـا بعـد فـإن الله جـل ثنـاؤه وتقدسـت أسماؤه، جعل هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير والرشـاد، وشرهـا أوعاهـا للغي والفساد، وسلط عليها الهوى وامتحنها بمخالفته لتنـال بمخالفتـه جنـة المأوى،**

(١)البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في المساقاة (٢٩٩٦)، وابن ماجة في الفتن (٣٩٧٤)، وأحمد في الكوفيين (١٧٦٤٩)، والدارمي في البيوع (٢٤١٩)، كلهم من حديث النعمـان ابـن بـشير رضـي الله عنه.

(٢)بتصرف واختصار من نزهة المحبين لابن القيم والذي أبدع فيـه ونوصـي باقتنائـه وقراءتـه، وقـسمه إلىٰ تسعة وعشرين بابـًا .

ويستحق من لا يصلح للجنة بمتابعته نارًا تلظى، وجعله مركب النفس الأمارة بالسوء وقوتها وغذاءها وداء النفس المطمئنة ومخالفته دواءها، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد في هذه المدة القصيرة التي هي بالإضافة إلى الآخرة كساعة من نهار أو كبلل ينال الإصبع حين يدخلها في بحر من البحار عصيان النفس الأمارة ومجانبة هواها وردعها عن شهواتها التي في نيلها رداها ومنعها من الركون إلى لذاتها ومطالبة ما استدعته العيون الطامحة بلحظاتها؛ لتنال نصيبها من كرامته وثوابه موفرًا كاملاً، وتلتذ آجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلاً، وأمرها بالصيام عن محارمه؛ ليكون فطرها عنده يوم لقائه، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهب وأن عيد اللقاء قد اقترب، فلا يطول عليها الأمد باستبطائه كما قيل:

فَمَا هي إِلاَّ سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي وَيَذْهَبُ هَذا كُلُّـهُ وَيَـزُولُ

هيأها لأمر عظيم وأعدها لخطب جسيم وادخر لها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم، واقتضت حكمته البالغة أنها لا تصل إليه إلا من طريق المكاره والنصب، ولا تعبر إليه إلا على جسر المشقة والتعب فحجبه بالمكروهات صيانة له عن الأنفس الدنيات المؤثرة للرذائل والسفليات وشمرت إليه النفوس العلويات والهمم العليات فامتطت في السير إليه ظهور العزمات فسارت في ظهورها إلى أشرف الغايات، وواصلوا السير إليه بالغدو والرواح فحمدوا عند الوصول مسراهم «وَإِنَّمَا يَحْمَدُ القومُ السُّرى عِنْدَ الصَّباح»[1] تعبوا قليلاً فاستراحوا طويلاً، وتركوا حقيرًا، واعتاضوا عظيمًا، وضعوا اللذة العاجلة والعاقبة الحميدة في ميزان العقل، فظهر لهم التفاوت، فرؤوا من أعظم السفه

(١)مثلاً يضرب لمن يتعب ثم يستريح.

بيع الحياة الطيبة الدائمة في النعيم المقيم بلذة ساعة تذهب شهوتها وتبقى شقوتها، هذا وإن من أيام اللذات لو صفت للعبد من أول عمره إلى آخره لكانت كسحابة صيف تتقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى آذن بالرحيل قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾ (الشعراء).

ومن ظفر بمأموله من ثواب الله فكأنه لم يوتر[1] من دهره بما كان يحاذره ويخشاه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت من الشعر:

كأنك لم توتر من الدهر مرة إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

العناية بالقلب «إن في القلب مضغة»[2] :

إن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدى هملاً، بل جعلهم موردًا للتكليف، ومحلاً للأمر والنهي وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملاً ومفصلاً، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلاً، وأعطاهم مواد العلم والعمل من القلب والسمع والبصر والجوارح نعمة منه وتفضلاً، فمن استعمل ذلك في طاعته وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه ولم يبغ عنه عدولاً، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلاً، ومن استعمله في إرادته وشهواته ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك ويحزن حزنًا طويلاً فإنه لابد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (٣٦)﴾ (الإسراء).

---

(١)توتر: من وتر بمعنىٰ فقد.

(٢)انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ١/ ٥ .

القلب ملك الأعضاء:

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله قال النبي ﷺ: « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**»[١] ، فهو ملكها وهي المنفذة لما يأمرها به القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته وهو المسؤول عنها كلها؛ لأن كل راع مسؤول عن رعيته، من هنا كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق ببذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول ضمن: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢)، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين وإشعار القلب بها.

أمراض القلوب:

---

(١)سبق التخريج في ص (٣١).

لله ما نحن فيه من البلاء، أما البلاء البدني والاعتلال الجسمي فقد برع أهل زماننا فيه حتى راحوا يعالجون بالمناظير والليزر ما كان علاجه قديماً ضرباً من المستحيل.

أما اعتلال القلوب فقد صعب علاجه، واشتد مراسه إلا عن القليل القليل، ولننظر طرفاً من هذه الأدواء وما لها من شفاء عند سلفنا، فهم أهل هذه الصناعة وبضاعتهم خير بضاعة.

أمراض القلوب وشفائها:

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ (البقرة: ١٠)، وقال تعالى: ﴿ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾ (الحج:٥٣)، وقال سبحانه: ﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ ﴾ (الأحزاب)، وقال: ﴿ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ ﴾ (المدثر: ٣١)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ (يونس)، وقال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢ ﴾ (الإسراء)، وقال سبحانه: ﴿ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ ﴾ (التوبة: ١٤ ـ ١٥).

ومرض البدن اختلال صحته وصلاحه وهو فساد يكون فيه، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلو مرًا، وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها في

الخارج، وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عن الهضم، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها ويحب الأشياء التي تضره ويحصل له من الآلام بسبب ذلك.

ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك، بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة، فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن، إما بسبب فساد الكمية، أو الكيفية، فالأول إما لنقص المادة فيحتاج إلى غذاء، وإما بسب زيادتها فيحتاج إلى استفراغ، والثاني كقوة في الحرارة والبرودة خارجاً عن الاعتدال فيداوى.

وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته، بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار، فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب، كما فسر مجاهد وقتادة قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك، وبعضهم يفسره بشهوة الزنى كما في سورة الأحزاب: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

ولهذا صنف الخرائطي كتاب اعتلال القلوب، أي مرضها، وأراد به مرضها بالشهوة، والمريض يؤذيه مالا يؤذي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض، والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي، والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد، والمرض يقوى بمثل سببه ويزول بضده، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وزاد ضعف قوته حتى ربما يهلك، وإن حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس، ومرض القلب ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو

استولى عليك، فإن ذلك يؤلم القلب، قال الله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ (التوبة: ١٤ ـ ١٥).

فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم، ويقال فلان شفى غيظه، وفي القود استشفاء أولياء المقتول، ونحو ذلك، فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن، وكل هذه آلام تحصل في النفس، وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبي ﷺ: «**ألا سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما شفاء العيي السؤال**»[1] ، والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين.

ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق قد شفاني بالجواب، والمرض دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن، وموته ومرضه وشفائه، فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة.

* * * *

(١)أبو داود في الطهارة (٢٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه .

٦ ـ من صفات الرباني[١]

أ ـ همة الرباني :

والله الله في الهمم العالية، ما أرقاها وأعلاها.

والله الله في خيبة وهيبة ذوي الهمم الدانية.

ولندلف إلى تعرف بعضًا من هاتيك الربانيات في الهمم العاليات :

الهمة: فعلة من الهم، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة، فالهم مبدأها، والهمة نهايتها، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول في بعض الآثار الإلهية يقول الله تعالى:«**إني لا أنظر إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته**».

قال: «**والعامة تقول قيمة كل امرئ ما يحسن**»، والخاصة تقول:«**قيمة كل امرئ ما يطلب**»، يريد: أن قيمة المرء همته ومطلبه.

قال صاحب المنازل [٢] : «**الهمة ما يملك الانبعاث للمقصود صرفًا لا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها، قوله يملك الانبعاث للمقصود، أي يستولي عليه كاستيلاء المالك على المملوك، وصرفاً أي خالصًا صرفًا، والمراد أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا، فتلك هي الهمة العالية التي لايتمالك صاحبها، أي: لا يقدر على المهلة، ولا يتمالك صبره؛ لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود ولا يلتفت عنها إلى ما سوى أحكامها**».

وصاحب هذه الهمة سريع وصوله وظفره بمطلوبه ما لم تعقه العوائق، وتقطعه

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، ٣/ ٣ باختصار وتصرف.

(٢) وهو شيخ الإسلام الهروي.

العلائق ، وهي على ثلاث درجات، نكتفي بذكر درجة منها:

وهي الدرجة الأولى همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني وتحمله على الرغبة في الباقي وتصفيه من كدر التواني، أي يزهد القلب فيها وفي أهلها وسمى الرغبة فيها وحشة؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

أما الراغبون فيها فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم إذ فاتها ما خلقت له، فهي في وحشة لفواته ، وأما الزاهدون فيها فإنهم يرونها موحشة لهم؛ لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه، ولذلك كان من نازع الناس أموالهم وطلبها منهم أوحش شيء إليهم وأبغضه، وأيضًا فالزاهدون فيها إنما ينظرون إليها بالبصائر، والراغبون ينظرون إليها بالأبصار فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب كما قيل، وإذا أفاق القلب واندمل الهوى رأت القلوب ولم تر الأبصار.

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة في الباقي لذاته وهو الحق سبحانه، والباقي بإبقائه هو الدار الآخرة وتصفيه من كدر التواني، أي تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني الذي هو سبب الإضاعة والتفريط والله أعلم.

ب ـ الوقت عند الرباني [١] :

أحبتي في الله:

قال الشافعي رضي الله عنه : صحبت الصوفية، فما انتفعت منهم إلا بكلمتين سمعتهم يقولون:«**الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق**

---

(١) انظر: مدارج السالكين ٣/ ١٢٩ .

وإلا شغلتك بالباطل».

قلت : يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته، وقد يريدون بالوقت ما هو أخص من هذا كله، وهو ما يصادفهم في تصريف الحق لهم دون ما يختارونه لأنفسهم، ويقولون فلان بحكم الوقت أي مستسلم لما يأتي من عند الله من غير اختيار.

وهذا يحسن في حال، ويحرم في حال، وينقص صاحبه في حال، فيحسن في كل موضع ليس لله على العبد فيه أمر ولا نهي، بل في موضع جريان الحكم الكوني الذي لا يتعلق به أمر ولا نهي، كالفقر والمرض والغربة والجوع والألم والحر والبرد ونحو ذلك، ويحرم في الحال التي يجري عليه فيها الأمر والنهي والقيام بحقوق الشرع، فإن التضييع لذلك، والاستسلام والاسترسال مع القدر انسلاخ من الدين بالكلية، وينقص صاحبه في حال تقتضي قيامًا بالنوافل وأنواع البر والطاعة، وإذا أراد الله بالعبد خيرًا أعانه بالوقت وجعل وقته مساعدًا له، وإذا أراد به شرًا جعل وقته عليه وناكده وقته، فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأول كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده.

احفظ لسانك تكن ربانيـًا (اللسان صغير الحجم ، عظيم الإجرام):

أحبتي في الله:

كم يبدو هذا اللسان صغير، والشأن والمكانة لدى كثير من الناس، غير أنه باب عظيم للخير وبه يبدأ الإيمان، حيث ينطق مصدقاً للقلب بكلمة التوحيد، وقاعدة الإسلام «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**».

كما أنه باب الشر الأعظم الذي يورد النيران، ويورث الشنآن، ويحرق الأخضر

واليابس..فبكلمة منه تكون البراءة من الإسلام، وببسمة منه تغدو الأعمال هباءً، ويورث صاحبه الشقاء.

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[1]، وقال ﷺ :«**وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[2] .

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ (ق).

ولله در سلفنا لما نبهونا عن أخطار اللسان، وأكثروا في ذكر شروره وطرائق صونه، وسبل قبضه عن السوء، وبسطه إلى الخيرات.

قال أبو حاتم البُستي:

«**الواجب على العاقل أن يبلغ مجهوده في حفظ اللسان حتى يستقيم له، إذ اللسان هو الموردُ للمرء موارد العطب، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام**».

ولله در القائل :

أَقْلِلْ كَلاَمَكَ وَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهِ ... إن البَلاء ببعضه مقرونُ

واحفظ لِسَانَكَ واحْتَفِظْ من غَيِّهِ ... حتى يكونَ كأَنَّهُ مَسْجونُ

وكِّل فؤادك باللِّسانِ وقلْ لَهُ ... إن الكلامَ عليكما مَوْزُونُ

---

(١)البخاري في الأدب (٥٥٥٩، ٥٦٧١، ٥٦٧٣)، والرقاق (٥٩٩٤)، ومسلم في الإيمان (٦٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٤)، وأبو داود في الأدب (٤٤٨٧)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٣٠٧، ٩٢٢٣) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢)الترمذي في الإيمان (٢٥٤١)، وابن ماجة في الفتن (٣٩٦٣)، وأحمد في مسند الأنصار (٢١٠٠٨، ٢١٠٥١، ٢١٠٥٤)، كلهم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

وهذا حكيم يخاطب العقلاء فيقول:

«كل كلمة لم يتقدمها نظر، الكلام فيها خطر، وإن كانت من أسباب النظر».

❊ ❊ ❊ ❊

٧ـ كُن عابدًا متوكلاً .. تكن ربانيًا

١ ـ العبودية [١] :

منزلة المنازل، وخاتمة الألطاف الربانية والمنح الإلهية والعطايا للعبد، وهي خير وصف وصف به سيد العباد محمد ﷺ .

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا ١٩﴾ (الجـن).

فـذكره بالعبوديـة في مقـام الـدعوة إليـه وقـال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا﴾ (الإسراء:١)، فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:«**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا : عبد الله ورسوله**»[٢] .

وفي الحديث:« **أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد**»[٣].

حدثنا هلال عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلتُ: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥﴾ (الأحزاب)، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل،

---

(١)انظر: مدارج السالكين ١/ ١٠٢ .

(٢)البخاري في أحاديث الأنبياء (٣١٨٩)، وأحمد في مسند العشرة (١٤٩، ١٥٩)، كلهم من حديث عمر رضي الله عنه .

(٣)قال الألباني في السلسلة الصحيحة ٥٤٤ (٢/ ٧٢): رواه البغوي في شرح السنة (٣/ ٢٢١٨٧) من طريق أبي الشيخ عن عبيدالله بن الوليد، عن عبدالله بن عبيد بن عمير عن عائشة، قلت: وهذا إسناد ضعيف، عبيد الله بن الوليد وهو الوصافي، قال الحافظ في التقريب: ضعيف، لكنه قد تُوبع.

ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر»[(١)] .

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزُمَر).

وجعل الأمن المطلق لهم فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩﴾ (الزخرف).

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم وخاصة جعل سلطانه على من تولاه وأشرك به فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ (الحجر).

وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ (النحل).

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل، وقد سأله عن الإحسان في حديث عمر بن الخطاب الذي رواه مسلم: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٢)] .

انقسام العبودية إلى عامة وخاصة :

أحبتي في الله:

العبودية نوعان عامة وخاصة ، فالعبودية العامة عبودية أهل السموات والأرض

---

(١)البخاري في البيوع (١٩٨١)، وتفسير القرآن (٤٤٦١)، والدارمي في المقدمة (٦).

(٢)مسلم في الإيمان (٩) ، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٠٤)، وأبو داود في السُنَّة (٤٠٧٥)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٧٩، ٣٤٦)، كلهم من حديث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

كلهم لله برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (مريم).

فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الفرقان)، فسماهم عباده مع ضلالهم.

وأما النوع الثاني فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الزخرف)، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ ﴾ (الزُمَر)، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الفرقان).

وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحِجْر)، فقال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحِجْر: ٤٢). فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته.

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة انقسام القنوت إلى خاص وعام والسجود كذلك قال تعالى في القنوت الخاص: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ ﴾ (الزمر: ٩).

وقال في حق مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (التحريم)، وهو كثير في القرآن

الكريم.

وقال في القنوت العام : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ ﴾ (الروم). أي خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦ ﴾ (الأعراف).

وقال : ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾ (مريم)، وهو كثير في القرآن الكريم.

وقال في السجود العام: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ١٥﴾ (الرعد).

ولهذا كان هذا السجود المذكور هنا غير السجود المذكور في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ ﴾ (الحج: ١٨).

فخص بالسجود هنا كثيرًا من الناس ، وعمهم بالسجود في سورة النحل ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة، وهو سجود الذل والقهر والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تعالى .

* * * *

٨ـ التوكل وفلسفته

قد جاءت آيات القرآن تترى تمدح التوكل وتثني عليه، وتذكر المتوكلين، وتنوه بهم، وهذه قبسات من تلك الآيات:

قال الله تعالى في مقام الأمر بالتوكل عليه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (المائدة)، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (إبراهيم).

وقال في معرض التخصيص والحث عليه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ (الأنفال).

وقال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه محمد ﷺ ومن ورائه المؤمنون: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ (النمل)، وقال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ (النساء).

أما ما جاء من الحديث عن التوكل فهو كثير ووفير،

ولنقتبس معاً طائفة من تلك الأحاديث كالتالي:

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ (آل عمران)»[1].

---

(١) البخاري في تفسير القرآن (٤١٩٧)، وأحمد في مسند بني هاشم (٢٨٥٣).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني**»[١]، [٢].

وعن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال ـ يعنى: إذا خرج من بيته ـ بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يُقال له حينئذٍ: هُديت وَوُقيت وكُفيت، فتتنحى له الشياطين، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي**»[٤].

بيان فضل التوكل:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (آل عمران).

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣).

وفي الحديث أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال: «**هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم**

---

(١) وهذا إيمان على إيمان من العبد، واستيثاق مقام الله الحي القيوم، ومعنى القيوم أي الذي يقوم بكل شيء وكل شيء محتاج إليه، وهو لا يحتاج لشيء أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون.

(٢) مسلم في الذكر والدعاء (٤٨٩٤)، وأحمد في مسند بني هاشم (٢٦١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الترمذي في الزهد (٢٢٦٦)، وابن ماجة في الزهد (٤١٥٤)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة (٢٠٠، ٣٤٨، ٣٥١).

(٤) الترمذي في الدعوات (٣٣٤٨)، وأبو داود في الأدب (٤٤٣١).

يتوكلون»[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً**»[2]

.

ولا يتوكل المرء على الله صدقاً إلا إذا كان صادق التوحيد مخلصاً فيه، وعندها سيعرف أن الخوف والرجاء من الله، وأن الثقة به، والتوكل عليه سبحانه.

بيان أحوال التوكل وأعماله وحده، ونحو ذلك:

أحبتي في الله:

التوكل مأخوذ من الوكالة، يُقال : وكل فلان أمره إلى فلان، أي: فوض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على المَوَكِّل، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية.

فإذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله ، وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسببه أحد أمرين:

١ ـ إما ضعف اليقين بأحد الصفات السابقة لله تعالى.

---

(١)البخاري في الطب (٥٣١١)، والرقاق (٦٠٥٩)، ومسلم في الإيمان (٣٢٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٧٠)، وأحمد في مسند بني هاشم (٢٣٢١)، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢)سبق تخريجه في ص ٤٦ .

٢ ـ وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه.

فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلو منه إنسان، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه،فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعاً، فإذا انكشف لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التي تسمى توكلاً، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن يكون حال الإنسان في حق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته، كحاله في الثقة بالكفيل كما سبق.

الدرجة الثانية : وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، وإن أصابه أمر كان أول ما يخطر على قلبه وما يسبق على لسانه قوله يا أماه.

الدرجة الثالثة : أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً، وهذا يختلف عن حال الصبي مع أمه، فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها.

وهذه الأحوال كلها توجد في الخلق.

بيان أعمال المتوكلين:

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، أصابه الضعف والهزال، وهذا ظن الجهال،

وهو حرام في الشرع.

والشرع الحكيم أثنى على المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده، وسعي العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب، أو حفظ موجود، كالادخار، وإما لرفع ضرر لم ينزل، أو لإزالة ضر قد نزل كالتداوي من المرض،فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة:

الفن الأول: جلب المنافع :

فنحن نأخذ بالأسباب لجلب المنافع، وهذه الأسباب على درجات:

١ ـ سبب مقطوع به : وهى الأسباب التى ترتبط بها المسببات ارتباطاً مطرداً لا يختلف مثل: مد اليد إلى الطعام من أجل سد الرمق، الحرث والبذر من أجل الزراعة، الزواج والموافقة من أجل الإنجاب،فإن لم تمد يدك للإطعام، ولم تقدم على الحرث والبذر من أجل الزراعة، ولم تواقع زوجتك وتنتظر منها الولد. مُدعياً أنك بذلك تكون متوكلاً على اللـه، فهذا جنون.

٢ ـ سبب ليس متيقناً: لكن الغالب أن المسببات لا تحدث دونها، مثل: اختيار الطريق المطروق في السفر، واستصحاب الزاد، وملازمته الأمصار والقوافل.

الفن الثاني: في التعرض للأسباب بالادخار :

فمن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله، فادخره إياه فإن ذلك لا يخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ «**كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم**»[1]، فإن قيل : قد نهى رسول الله ﷺ بلالاً أن يدخر، فالجواب : أن حال

(١)البخاري في النفقات (٤٩٣٨).

بلال وأمثاله من أهل الصفة كان مقتضاها عدم الادخار، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال، لا على الادخار الحلال.

الفن الثالث: مباشرة الأسباب الدافعة للضرر :

ينبغي الابتعاد عن أسباب الضرر، وممارسة الأسباب التي تدفع الضرر، فلايجوز النوم في الأرض المسبعة أو مجرى السيل، أو تحت جدار، فكل ذلك منهي عنه، وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع والتحصن للقتال، وإغلاق الباب، قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٢).

الفن الرابع :السعي في إزالة الضرر كمداواة المريض ونحو ذلك :

الآخذ بالأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى:

١ ــ سبب مقطوع بإزالة للضرر :كالماء يزيل العطش، والخبز يزيل شدة الجوع فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

٢ ــ سبب يتوهم أنه يزيل الضرر وأما شكوى المريض فهى مخرج عن التوكل وقد كانوا يكرهون أنين المريض؛ لأنه يترحم عن الشكوى، فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضاً بلا عواد،فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده فإنه لا يضره، وقد كان بعض السلف يفعل ذلك، ويقول إنما أصف قدرة الله في ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة، وقد روى أن النبي ﷺ قال: « **إني أوعك كما يوعك رجلان منكم** »[1] .

---

(١)البخاري في المرضى (٥٢١٦، ٥٢٢٨)، ومسلم في البر والصلة (٤٦٦٣)، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٣٤٣٦، ٣٩٨٨، ٤١١٦)، والدارمي في الرقاق (٢٦٥٢)، كلهم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

❊ ❊ ❊ ❊

المبحث الثالث
جـواهـر مـن الوعـظ
٩ـ تطـواف في حدائق الحكـم

أحبتي في الله:

هذه مُدارسة عامة وسياحة و تطواف في حدائق الحكم، نمر فيها معاً نـتلمس مـن روائع الكلـم، وجـواهر العلـم، ومـوجز الكـلام، وحرصـت عـلى نقلهـا بنـصها قـدر الطاقة ؛ لئلا ينطفئ بريقهـا، ولكـي نـرتبط مباشرة بجـواهر حكـم سـلفنا الـذي حيا الحياة الكريمـة، وسـما السمو الـصحيح إلى عـوالم الـروح والفـضيلة ولم تـشبهم لوثـة المادية، ولم تحتزمهم المطامع، ولا طاشت بهم المطامح، ولا ذلوا لدنيا عما قريب فانية.

قالـوا :

- لسان الفصيح فصيح .
- ليكن قرينك من يزينك .
- من قصر أمله، ظهر عمله .
- حد العفاف الرضى بالكفاف .
- العلم يهتف للعمل، إما أصابه وإما رحل.
- من رام الأمور جملة خرجت عنه جملة.
- عليك بالمشـورة، فإنها تأمـر بالتي هي أحسـن، وتهـدي للتي هي أقوم.
- لا يجوز أن يكذب الرجل لصلاح نفسه، فإن مـا عجـز الـصدق عـن إصـلاحه،

كان الكذب أولى بفساده.

– من كان كلامه لا يوافق فعله، فإنه يوبخ بذلك نفسه .

– آفة الرأى الهوى، والعجز مفتاحُ الفقر، وخير الأمور الصبر .

– اشتغل عن لذاتك، بعمارة ذاتك.

– من أطاع غضبه، أضاع أدبه.

– يتشابه الأمر إذا أقبل، فإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق.

– من سعادة جدك، وقوفك عند حدك.

– من أصلح فاسداً، أرغم حاسده.

– معنى المعاشرة، ترك المعاسرة.

– كفوا ألسنتكم، فإن مقتل الرجل بين فكيه.

– أشرف الغنى، ترك المنى.

– إذا زل العَالِمُ، زل العَالَمُ.

– الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة، والنفس طماعة، عوِّدها القناعة.

– ودك من نصحك، وقلاك من مشى في هواك.

– من طلب شيئاً قبل أوانه، حرمه في أوانه.

– من أطال الأمل، أساء العمل .

– أطع أخاك وإن عصاك، وصله وإن جفاك.

– نفسك إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل.

– من اشترى ما لا يحتاج إليه، باع ما يحتاج إليه.

- ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

- ما عوقب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلبه.

- إياك أن ترى الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر.

- إن العالم إذا لم يعمل بعلمه، زلت موعظته من القلوب كما يزل المطر على الصفا.

- عليك بمجالسة من يزيد من عملك قوله، ويدعوك لحال الآخرة فعله.

- ومن كان الله همه، قل في الدنيا والآخرة غمه، ومن خلا بربه، لم يعدم النور من قلبه، ومن خلا بغيره لم يعدم الزيادة من ذنبه.

- كل كلمة لم يتقدمها نظر، فالكلام فيها خطر.

- إذا قال رجل فيك ما لا يعلم من الخير، أوشك أن يقول فيك ما لا يعلم من الشر.

- رضا الناس غاية لا تدرك، فانظر ما فيه صلاح نفسك في أمر دينك ودنياك فالزمه.

- التواني إضاعة، والحزم بضاعة، والإنصاف راحة، واللجاج وقاحة.

- أسوأ الناس حالاً، من قويت شهوته، وبعدت همته، واتسعت معرفته، وضاقت مقدرته.

- الثقة بالله أزكى أمل، والتوكل عليه أوفى عمل.

- من لم يكن له من دينه واعظ، لم تنفعه المواعظ.

- لا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

- من عرض نفسه للتهم، فلا يلومن من أساء به الظن.

- المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.

- الشهوة مثل النار، إذا أضرمها صاحبها بدأت بإحراقه.

- لا يكون العبد تقياً حتى يكون تقي الطمع، تقي الغضب.

- إلى متى تتهادى في الغفلة كأنك قد أمنت عواقب المهلة، عمر اللهو مضى، وعمر الشبيبة انقضى، وما حصلت من ربك على ثقة بالرضا، وقد انتهى بك الأمر إلى شؤم التخاذل وزمن التكاسل، وما حظيت بطائل.

- رأي من ينصحك أمثل من رأيك لنفسك؛ لأنه خلو من هواك.

- إن من أكبر الخطأ أن تنظم الحياة من حولك، وتترك الفوضى في قلبك.

- إن الرجل الصالح يترك أثراً صالحاً، في كل مكان ينزل فيه.

- لا تعش بغير غاية، فإن الله لم يخلقك عبثاً ولم يتركك سدى، فليكن الله غايتك.

- أقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورد الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

- وقال الشاعر:

تَرْجُو النجاةَ ولم تَسْلُكْ مَسَالِكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

ركوبك النعش ينسيك الركوب على ... ما كنت تركب من بغل ومن فرس

يوم القيامة لا مال ولا ولد ... وضمة القبر تنسى ليلة العرس

- وقال أبو العتاهية:

النـاسُ في غَفَلاتِهم ... وَرَحى المنِيةَ تَطْحَنُ

* * * *

المبحث الرابع
التفكـر والاعتبـار
١٠ ـ العقل آلـة الاعتبار [١]

أحبتي في الله:

إن ركائز الإسلام التفكر والتدبر والاعتبار، فما قام الإيمان إلا بإعمال العقل وتسليم القلب، وطالما خاطبنا الله سبحانه في كتابه بذلك، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنعام).

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (القصص).

وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (الحديد).

أ ـ العقـل :

اسم يقع على المعرفة بسلوك الثواب والعلم باجتناب الخطأ، ومن لزم الثواب وجانب الخطأ كان أديبًا ثم يرقى فيصير أريبًا، ثم إذا ارتقى صار لبيبًا ثم إذا اكتمل تعاقله سمي عاقلاً.

وأفضل منح الله للإنسان العقل إذ به يتعرف إلى الله وبه يتفكر في آياته وهو طريق القلب إلى الإيمان والتسليم وقد أحسن القائل:

وأفـضلُ قَـسْمِ الله للمـرءِ عقلـه ... فلـيسَ مـن الخيـراتِ شيء يقاربُـه

---

(١) انظر: روضة العقلاء لأبي حاتم البستي، ص١٥، تحقيق: الشيخ حامد الفقي ط.دار الكتب العلمية: بيروت وما بعدها، وانظر الأذكياء لابن الجوزي.

إذا أكمـلَ الـرحمنُ للمـرءِ عقلَـهُ فَقَـدْ كَمُلَـت أخلاقُـه ومآرِبُـه
يعـيشُ الفتـى في النَّـاسِ بالعقـلِ إنـه عَـلَى العَقْـلِ يَجْـرِي علمـه وَتَجَارِبُـه

ب ـ فضيلة العقل في تدبر آيات الله :

إن فضيلة العقل لا تكتمل إلا بالتدبر والتأمل في خلق الله والتعقل لما أنزل قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران).

وقال سبحانه وتعالى معللاً لدخول أفواج من الناس النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ (المُلك).

جـ ـ بين العقل والهوى :

أحبتي في الله:

ذكر علماؤنا وأئمة ديننا الأبرار كابن القيم وغيره أن العقل والهوى متعارضان، إذ ألقى الله سبحانه العداوة بين العقل ومقتضاه، وبين الهوى ومسعاه، وأمد كل منهما بجنود وأعوان وجعل الحرب بينهما سجالاً، فإن كانت النوبة والإفاقة للعقل وجنوده فهنالك ينال العبد السعادة والسرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة، وإن كانت الغلبة للهوى والنفس، فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر.

وعليه فالعاقل يجب أن يسعف عقله على هواه، فإذا اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما من هواه، وقد سأل معاوية بن أبي سفيان رجلاً من العرب عمر دهرًا طويلاً فقال له: أخبرني بأحسن شيء رأيته؟ قال: عقل طلب به مروءة مع تقوى الله وطلب الآخرة.

١١ ـ كيف نتفكر ونعتبر؟
وكيف ننفذ بفكرنا إلى عظمة ربنا؟

أحبتي في الله:

بناء على ما سبق فإنه بوسع العبد أن يتفكر في خلق الله جميعًا فيما وصل إليه العلم الحديث وفيما طاله فكر وبحث بنى الإنسان قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ (يونس: ١٠١)، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ﴾ (آل عمران).

د ـ التفكر في المهلكات والمنجيات :

إن مقصودنا الآن هو الحث على التفكر في الدين أو التفكر في عوارض الدنيا التي ينفذ من خلالها إلى الآخرة، فالعاقل عليه أن ينظر في حال نفسه، وأن لايخوض درب المهلكات.

ويعتبر في سبيل المنجيات ويقنع نفسه ويستغرق فكره في درك طرائقها من مثل ترك الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى والخشوع.

ولله در الحسن لما قال : «**إن أفضل العمل الورع والتفكر**».

وسُئلت أم الدرداء عن عبادة أبي الدرداء فقالت : « **كان أكثر عبادته التفكر والاعتبار**».

وهذا محمد بن كعب القرظي يقول: «**لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح: ﴿إذّا**

زلزلت﴾ و﴿القارعة﴾ لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما أحب إليَّ من أن أهز القرآن هزًا أو قال أنثره نثرًا».

وفي نفس معنى ذلك روى عكرمة عن ابن عباس قال: «**ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة، والقلب ساه**».

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: « **ثلاث صاحبهن جواد مقتصد: فرائض الله يقيمها ، ويتقي السوء، ويقلِّلُ الغفلة**».



١٢ ـ من أسرار الحياة

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود:٧) .

كم من آية هي بين أيدينا ونغفل عنها؟

وكم من حكمة لله فيها أمور ونحن نستهين بها؟

ولنتبصر معًا بعض حكم الله في تصريف خلقه، عسانا نعتبر ونتفكر، وهذا لعمري من أنواع العبادات الراقيات التي نحن بحاجة إليها أي عبادة التفكر والتبصر.

أحبتي في الله..

ولنتبصر الآن حكمة رب العباد في إنزال سيدنا آدم إلى الأرض، ولنعي ما فيها من حكمة، فهلموا بنا أحبتي في الله نقتبس فيوضًا من هذه الحكم[1]، نقلاً عن رائد تلك الصناعة، وحافظ هذه البضاعة الروحية المعتبرة ابن قيم الجوزية حيث يقول تعقيبًا على حكمة إهباط آدم من الأرض: «**فإن الله سبحانه وتعالى لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له في ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن معرفتها، والألسن عن صفتها، فكان إهباطه منها عين كماله؛ ليعود إليها على أحسن أحواله، فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخرة فإن الضد يظهر حسنه الضد.**

ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها، وأيضًا فإنه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختبارهم وليست الجنة دار تكليف، فأهبطهم الى الأرض وعرضهم

---

(١)انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٣ وما بعدها بتصرف واختصار.

بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي.

وأيضًا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه فخلى بينهم وبين أعدائه وامتحنهم بهم، فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم في مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون ذلك أصلاً.

فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذي قدره وقضاه من إهباطه إلى الأرض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها، وأيضًا فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى فمن أسمائه:

الغفور، الرحيم، العفو، الحليم، الخافض، الرافع، المعز، المذل، المحيي، المميت، الوارث، الصبور ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء».

ظهور معاني أسماء الله في تصريفه لخلقه :

اقتضى حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارًا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه التي فيغفر فيها لمن يشاء، ويرحم من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرفع من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وينتقم ممن يشاء، ويعطي ويمنع ويبسط إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته، وأيضًا فإنه سبحانه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويهين ويكرم، ويعز ويذل.

فاقتضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته دارًا تجري عليهم فيها أحكام الملك، ثم ينقلهم إلى دار يتم عليهم فيها ذلك، وأيضًا فإنه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب، والإيمان بالغيب هو الإيمان النافع، وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد

يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفسًا إلا إيمانها في الدنيا، فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه، بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه.

وأيضًا فإن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، والأرض فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والكريم واللئيم فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه، ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره، وجعل الخبيث أهل دار الشقاء دار الخبثاء قال الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الأنفال).

ثم أظهر سبحانه علمه لعباده ولملائكته بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه ومن يتقرب إليه، ويبذل نفسه في محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه، فيترك محبوباته تقربًا إليه، ويترك شهواته ابتغاء مرضاتي، ويبذل دمه ونفسه في محبتي وأخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار ويعبده مع معارضات الهوى والشهوة والنفس.

وأيضًا فإنه يريد أن يظهر ما خفي عليكم من شأن عدوه ومحاربته له وتكبره عن أمره وسعيه في خلاف مرضاته وهذا وهذا كانا كامنين مستترين في أبي البشر وأبي الجن فأنزلهم دارًا أظهر فيها ما كان الله سبحانه منفردًا بعلمه لا يعلمه سواه، وظهرت حكمته وتم أمره وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون، وأيضًا فإنه سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا

ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين.

وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارًا يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته، فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وأيضًا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه، فمحبتهم له هي غاية كمالهم ونهاية شرفهم.

ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنية إلا بموافقة رضاه، واتباع أمره، وترك إرادات النفس وشهواتها التي يكرهها محبوبهم، فأنزلهم دارًا أمرهم فيها ونهاهم، فقاموا بأمره ونهيه، فنالوا درجة محبتهم له، فأنالهم درجة حبه إياهم، وهذا من تمام حكمته وكمال رحمته، وهو البر الرحيم.

❊ ❊ ❊ ❊

١٣ ـ التفضيل والسبق في عبودية الاختيار لا الاضطرار [١]

أحبتي في الله:

إن الله سبحانه لما خلق خلقه أطوارًا وأصنافًا، وسبق في حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته، جعل عبوديته أفضل درجاتهم أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا.

وقد ثبت أن الله سبحانه وتعالى أرسل جبريل إلى النبي ﷺ يخيره بين أن يكون ملكًا نبيًا أو عبدًا نبيًا فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأشار إليه أن تواضع فقال: « **بل أن أكون عبدًا نبيًا**»، فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته في مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال في مقام الإسراء سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، ولم يقل برسوله ولا نبيه إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه، وقال في مقام الدعوة، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدًا، وقال في مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة:٢٣).

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول عيسى عليه السلام: «**ائتوا محمدًا ﷺ ، عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[٢]، فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله، وكمال مغفرة الله له، وإذا كانت

---

(١)انظر: مفتاح دار السعادة ١/ ١٠ وما بعدها.

(٢)البخاري في تفسير القرآن (٤١١٦)، وابن ماجة في الزهد (٤٣٠٢)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (١١٧١٠) كلهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارًا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بمحابه وترك مألوفاتهم من أجله، فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم وأيضًا.

فإنه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكرًا وأعظم التذاذًا بما أعطاهم من النعيم، فأراهم سبحانه فعله بأعدائه وما أعد لهم من العذاب وأنواع الآلام وأشهدهم تخليصهم من ذلك، وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكمل غبطتهم ويعظم فرحهم وتتم لذتهم، وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم، ولم يكن بد في ذلك من إنزالهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم رحمة منه وفضلاً، وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلاً، وهو العليم الحكيم.

ولا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه ومحبوبه الذي هو أحب الأشياء إليه في أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب في أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سرورًا وعظمت لذته وكملت نعمته، وأيضًا فإنه سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته وهي الغاية منهم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات).

ومعلوم أن كمال العبودية هو المطلب الأول من العبد الذي خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده ويظهر لعباده عزته في حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكه، فاقتضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم آدم وبال مخالفته وعرفه بعواقب إجابة الشهوة والهوى؛ ليكون أعظم حذرًا فيها وأشد هروبًا منها.

ومن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل عدوهم بهم، فاستعدوا له

وأخذوا أهبتهم فإن قيل كان من الممكن أن لا يسلط عليهم العدو، قيل: قد تقدم أنه سبحانه خلق آدم وذريته على بنية وتركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذين هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق إليهم، ولكن لو خلقوا هكذا لكانوا خلقًا آخر غير بني آدم، فإن بني آدم قد ركبوا على العقل والشهوة، ولما كانت محبة الله وحده هي غاية كمال العبد وسعادته ولا تتحقق إلا بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق في طاعته ومرضاته؛ لهذا اقتضت حكمته سبحانه إخراجهم إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحاب النفوس[1].

* * * *

(١)انظر: مفتاح دار السعادة، بتصرف واختصار.

١٤ـ فاعتبروا يا أولي الأبصار [(١)]

هلموا بنا نتدبر ونعتبر..

هلموا بنا لنكون من أولي الأبصار، وأولي الألباب..

هلموا بنا لنعمل بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ (الحشر).

تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام؛ لترى ما فيها من أدلة على كمال قدرة خالقه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال لطفه، فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلاته ومصالحه، وكل ما يحتاج إليه، فالسماء سقفه المرفوع عليه، والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن، والشمس والقمر سرجان يزهران فيه، والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمنتقل في طرق هذه الدار، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر.

والحواصل الـمُعَدَّة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له ، وضروب النبات مهيأ لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه، فمنها الركوب، ومنها الحلوب، ومنها الغذاء، ومنها اللباس والأمتعة والآلات، ومنها الحرس الذي وكل بحراسة الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لإهلاكه وأذاه، فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم.

وجعل الإنسان كالملك المخول في ذلك المتحكم فيه المتصرف بفعله وأمره، ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام، وأن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين، بل الإله واحد لا

---

(١)انظر: مفتاح دار السعادة ١/ ٢٠٦ .

إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا، وإنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما، واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان، ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال في أوائل العقول وبداية الفطر: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء)، ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (المؤمنون).

فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدح صحيح، أو يأتوا بأحسن منهما ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما، ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر، وسنفرد إن شاء الله كتابًا مستقلاً لأدلة التوحيد.

في تأمل السماء ودلالتها على عظمة الله :

تأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كَرَّة بعد كرَّة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها[(١)] وسعتها وقرارها، بحيث لا تصعد علوًا كالنار، ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها، بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع[(٢)] فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولاعوج، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون

(١)انظر: مفتاح دار السعادة ١/ ٢٠٧ .

(٢)أي: تكسر وتشقق.

الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى إن من أصابه شيء أضرَّ ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون؛ ليمسك الأبصار المتقلبة فيه،هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك(١).

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور، ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولاقرار مع فرط الحاجة إلى السبات، وجموم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤوا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (القصص).

---

(١)وقد أثبت العلم الحديث أن ترددات لون السماء والخضرة والبحر من أفضل الترددات على العين وأيسرها، فبها يستريح النظر ويتقوى.

ثم خص سبحانه النهار بذكر البصر ؛ لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع ؛ لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع.

فقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ (الفرقان) راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ (الفرقان: ٧١)، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الفرقان)، راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (الفرقان: ٧٢)، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ (الفرقان)

فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خلفة أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما، وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثًا حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقبه فيطلبه حثيثًا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائمًا يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه.

* * * *

المبحث الخامس
عقد نضيد في غرر التحاميد لله
١٥ ـ من غُرَرِ التَحاميد[1]

أ ـ الحمد لله :

الحمدُ للهَ الذي لا يُستفتَحُ بأفضلِ من اسمه كلام، ولا يُستنجحُ بأحسن من صنعه مَرام.

الحمد للهَّ الذي افتتح به كلامَهُ الكريم، وفرقانه العظيم.

الحمد للهَ الذي هو شعار أهل الجنة كما قال وآخر دعواهم: أن الحمد للهَّ رب العالمين.

الحمد للهَّ المستحق الحمد حتى لا انقطاع، وموجب الشكر بأقصى ما يُستطاع.

الحمد لله مانحِ الأعلاق، وفاتحِ الأغلاقِ.

الحمد لله مُعز الحق وناصره، ومُذل الباطل وقاهره.

الحمد لله معز الدّين وَمُدِيلِهِ، ومُذل الباطل ومسيلهِ.

الحمد لله في الحُجَج البوالغ، والنعم السوابغ، والنقم الدوامغ.

الحمد لله المبين أيده، المتين كيدهُ،جاعل المعاقبة لحربه، والعاقبة لحزبه.

الحمد لله الذي لا يدرَكُ بالأبصار، ولاتحُثُه الأقدار، ولا تحويه الأقطار.

الحمد لله الذي أقل نعمه يستغرق أكثر الشكر.

الحمد لله حمدًا يبلغ الحق ويقضيه، ويمتري المزيد ويقتضيه ذِكرُ اللَّه تعالى،

---

(١)انظر: لباب الآداب للثعالبي، ص١ .

وجميل صنعه، وحسن عاداته عَلام الغيوب، ومن بيده أزِمَة القلوبِ، الخبير بما تُجن الضمائر وتكنُّ السرائر، سميع لراجيه، قريبٌ ممن يُناجيهِ، إن الله تعالى يقضي ما يُريد، وَإن رَغم أنفُ الشيطان المَريد، صنعُ الله لدينا لطيف، وفضله بنا مُطيف، لا يزال الله يجزينا على أحسن عادَتِه، ويقسم لنا أفضل سَعادَته، نِعَمُ الله على أحسن ما اعتيد من إحسانِهِ العتيد، إن اللهّ مُنجزُ عِداته وحافظ عاداته ومُهلك عُداته.

❊ ❊ ❊ ❊

١٦ـ مقدمة في إجلال الله [(١)]

الحمد لله الذي خلق خلقه أطوارًا، وصرفهم في أطوار التخليق كيف شاء عزة واقتدارًا، وأرسل الرسل إلى المكلفين إعذارًا منه وإنذارًا، فأتم بهم على من اتبع سبيلهم نعمته السابغة وقام بهم على من خالف مناهجهم حجته البالغة فنصب الدليل، وأنار السبيل، وأزاح العلل، وقطع المعاذير، وأقام الحجة، وأوضح المحجة وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ (الأنعام: ١٦٣).

وهو الذي أرسل رسله: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥).

فعمهم بالدعوة على ألسنة رسله حجة منه وعدلا وخص بالهداية من شاء منهم نعمة وفضلا فقبل نعمة الهداية من سبقت له سابقة السعادة وتلقاها باليمين وقال: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (النمل).

وردها من غلبت عليه الشقاوة ولم يرفع بها رأسا بين العالمين فهذا فضله وعطاؤه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ (الإسراء).

وهذا عدله وقضاؤه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء).

فسبحان من أفاض على عباده النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وأودع الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه، وتبارك من له في كل شيء على ربوبيته ووحدانيته

---

(١)انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ١/ ٣.

وعلمه وحكمته أعدل شاهد ولو لم يكن إلا أنه فاضل بين عباده في مراتب الكمال حتى عدل الآلاف المؤلفة منهم بالرجل الواحد ذلك ليعلم عباده أنه أنزل التوفيق منازله، ووضع الفضل مواضعه، وأنه يختص برحمته من يشاء، وهو العليم الحكيم، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

أحمده والتوفيق للحمد من نعمه ، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من فضله وكرمه وقسمه، وأستغفره وأتوب إليه من الذنوب التي توجب زوال نعمه وحلول نقمه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة، ولأجلها جلدت سيوف الجهاد، وبها أمر الله سبحانه جميع العباد فهي: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠)، وهي مفتاح العبودية التي دعا الأمم على ألسن رسله إليها، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام وأساس الفرض والسنة، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه، وحجته على عباده، وأمينه على وحيه، أرسله رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، ومحجة للسالكين، وحجة على المعاندين، وحسرة على الكافرين، أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنعم به على أهل الأرض نعمة لا يستطيعون لها شكورًا، فأمده بملائكته المقربين، وأيده بنصره وبالمؤمنين، وأنزل عليه كتابه المبين الفارق بين الهدى والضلال والغي والرشاد والشك واليقين فشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره.

وأقسم بحياته في كتابه المبين وقرن اسمه باسمه، فإذا ذكر ذكر معه، كما في الخطب والتشهد والتأذين، وافترض على عباده طاعته ومحبته والقيام بحقوقه، وسد الطرق كلها إليه وإلى جنته، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، فهو الميزان الراجح الذي على أخلاقه وأقواله وأعماله توزن الأخلاق والأقوال والأعمال والفرقان المبين الذي باتباعه يميز أهل الهدى من أهل الضلال، ولم يزل صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشمرًا في ذات الله تعالى لا يرده عنه راد صادعًا بأمره لا يصده عنه صاد إلى أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها.

❊ ❊ ❊ ❊

١٧ـ مقدمة في تعظيم الله

الحمد لله الصبور الشكور، العلي الكبير، السميع البصير، العليم القدير الذى شملت قدرته كل مخلوق، وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور، وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحاب القبور، قدر مقادير الخلائق وآجالهم، وكتب آثارهم وأعمالهم، وقسم بينهم معايشهم وأموالهم، وخلق الموت والحياة؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور القاهر القادر، فكل عسير عليه يسير، وهو المولى النصير: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ (الحج).

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ (التغابن).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جل عن الشبيه والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير، وتقدَّس عن تعطيل الملحدين، كما تنزَّه عن شبه المخلوقين، فليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وخيرته من بريته، وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أعرف الخلق به، وأقومهم بخشيته، وأنصحهم لأمته، وأصبرهم لحكمه، وأشكرهم لنعمه، وأقربهم إليه وسيلة، وأعلاهم عنده منزلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأوسعهم عنده شفاعة.

بعثه إلى الجنة داعيًا ، وللإيمان مناديًا، وفي مرضاته ساعيًا، وبالمعروف آمرًا، وعن

المنكر ناهيًا، فبلغ رسالات ربه، وصدع بأمره، وتحمل في مرضاته ما لم يتحمله بشر سواه، وقام لله بالصبر والشكر حق القيام، حتى بلغ رضاه، فثبت في مقام الصبر، حتى لم يلحقه أحد من الصابرين، وترقى في درجة الشاكرين، حتى علا فوق جميع الشاكرين، فحمد الله وملائكته ورسله وجميع المؤمنين.

ولذلك خُص بلواء الحمد دون جميع العالمين ، فآدم تحت لوائه، ومن دون الأنبياء والمرسلين، وجعل الحمد فاتحة كتابه الذي أنزله عليه كذلك فيما بلغنا في التوراة والإنجيل.

أمته الحامدين قبل أن يخرجهم إلى الوجود لحمدهم له على السراء والضراء، والشدة والرخاء وجعلهم أسبق الأمم إلى دار الثواب والجزاء، فأقرب الخلق إلى لوائه أكثرهم حمدًا لله وذكرًا، كما أن أعلاهم منزلة أكثرهم صبرًا وشكرًا، فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع المؤمنين عليه، كما وحد الله وعرف به ودعا إليه وسلم تسليمًا كثيرًا .

* * * *

١٨ ـ مقدمة في حمد الله وتمجيده [(١)]

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلاً، وأوضح لهم طرق الهداية، وجعل اتباع الرسول عليها دليلاً، واتخذهم عبيدًا له فأقروا له بالعبودية، ولم يتخذوا من دونه وكيلاً، فأولئك: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة:٢٢)، لما رضوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً .

والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلاً، واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلاً، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى، ويحيون بكتابه الموتى فهم أحسن الناس هديًا وأقومهم قيلاً.

فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه، ومن مبتدع في دين الله بشهب الحق قد رموه جهادًا في الله وابتغاء مرضاته وبيانًا لحججه على العالمين وبيناته وطلبًا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته، فحاربوا في الله من خرج عن دينه القويم، وصراطه المستقيم، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا أعنة الفتنة، وخالفوا الكتاب، واختلفوا في الكتاب، واتفقوا على مفارقة الكتاب، ونبذوه وراء ظهورهم، وارتضوا غيره منه بديلاً.

أحمده وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه ، وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره، ولا إله له سواه، وأستهديه سبل الذين أنعم عليهم ممن اختارهم لقبول

(١)مفتاح دار السعادة.

الحق وارتضاهم، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه، وأستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه وأعوذ بالله من شر نفسي وسيئات عملي استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياه، واعتصم به من الأهواء المردية والبدع المضلة، فما خاب من أصبح به معتصمًا، وبحماه نزيلاً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أشهد بها مع الشاهدين، وأتحملها عن الجاحدين، وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين، وأشهد أن الحلال ماحلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وأشهد أن محمدًا عبده المصطفى ، ونبيه المرتضى، ورسوله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، أرسله رحمة للعالمين، وحجة للسالكين، وحجة على العباد أجمعين.

أرسله على حين فترة من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق، وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتعظيمه وتوقيره وتبجيله والقيام بحقوقه، وسد إليه جميع الطرق، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع له ذكره، وعلَّم به من الجهالة، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، فلم يزل قائمًا بأمر الله لا يرده عنه راد، داعيًا إلى الله لا يصده عنه صاد، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتآلفت القلوب بعد شتاتها، وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار.

فلما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على عباده المؤمنين، استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته، والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته، ففارق الأمة، وقد

تركها على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين.

فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة دائمة بدوام السموات والأرضين مقيمة عليهم أبدًا لا تروم انتقالاً عنهم ولا تحويلاً.

❋ ❋ ❋ ❋

المبحث السادس

آداب قـرآنيــة

١٩ ـ لزوم كتاب اللـه ، والتحذيـر مـن البدعـة [١]

أحبتي في الله:

إنه كتاب الله تعالى لنقرأه تدبرًا، ونتأمله تبصراً، ونسعد به تذكرًا، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره ورياحين الحكم من بين رياضه وأزهاره.

فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول فلا يغلق إذا غلقت الأبواب.

وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيرًا، زادها هداية وتبصيرًا، وكلما بجست معينه فجَّر لها ينابيع الحكمة تفجيرًا، فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء

(١)انظر: مدارج السالكين ١/ ٣ .

والصباح: ياأهل الفلاح حي على الفلاح، نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١﴾ (الأحقاف).

والله لو صادف آذانًا واعية، وقلوبًا من الفساد خالية، لأدركت أَنَّ هذا هو سبيل صلاحها في الدنيا والآخرة، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها ، وتمكنت منها آراء الرجال، فأغلقت أبوابها، وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها، فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذًا، وتحكمت فيها أسقام الجهل، فلم تنتفع معها بصالح العمل.

وا عجبًا لها ، كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين ونصوص حديث نبيه ﷺ المرفوع؟ وكيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنة والكتاب؟

وا عجبًا كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها، ومقبولها ومردودها، وراجحها ومرجوحها، وأقرت على أنفسها بالعجز عن تلقي الهدى والعلم، من كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكفيل بإيضاح الحق مع غاية البيان، وكلام من أوتي جوامع الكلم، واستولى كلامه على الأقصى من البيان؟

* * * *

٢٠ ـ رائعة في أخلاق أهل القرآن

القرآن هو النُور المبين، والحق المستبين، حبل الله الممدود، وعهده المعهود، وظِلهُ العَميم، وصِراطه المستقيم، وحجته الكبرى، ومَحَجته الوسطى،هو الضياءُ الساطعُ، والبرهان القاطع، هو الواضح سبيله، الرّاشد دليلهُ، الذي من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا، ومن أعرض عنها زَلَ وهوى، فضائل القرآن لا تستقصى في ألفِ قران، حجةُ الله وعهدهُ، ووعيدُهُ ووعده، يتبيّنُ تبيانه من استغلقت دونه المعضلات، ويستضيء بمصابيحه من غم عليه في المشكلات[1] .

أخلاق أهل القرآن [2] :

قال محمد بن الحسين : ينبغي لمن علمه الله القرآن، وفضله على غيره ممن لم يعلم كتابه، وأحب أن يكون من أهل القرآن، وأهل الله وخاصته، وممن وعده الله من الفضل العظيم ماتقدم ذكرنا له.

قيل في التفسير: يعملون به حق عمله.

قال النبي ﷺ : « **الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**» [3] .

وقال بشر بن الحارث : سمعت عيسى بن يونس يقول: «**إذا ختم العبد القرآن**

(١)انظر: لباب الآداب للثعالبي، ص ٣ .

(٢)انظر: أخلاق أهل القرآن للآجري، ص١٠ .

(٣)مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٢٩)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٢٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في الأدب (٣٧٦٩)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢٣٠٨٠، ٢٣٥٢٦، ٢٤١٩٧) كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها .

أقبل الملك بين عينيه، فينبغي له أن يجعل القرآن ربيعًا لقلبه، يعمر به ما خرب من قلبه، يتأدب بآداب القرآن ويتخلق بأخلاق شريفة، يتبين بها عن سائر الناس ممن لا يقرأ القرآن».

فأول ما ينبغي له أن يستعمل تقوى الله في السر والعلانية باستعمال الورع في مطعمه ومشربه، وملبسه ومسكنه، بصيرًا بزمانه وفساد أهله، فهو يحذرهم على دينه مقبلاً على شأنه، مهمومًا بإصلاح ما فسد من أمره، حافظًا للسانه، مميزًا لكلامه.
إن تكلم : تكلم بعلم إذا رأى الكلام صوابًا.

وإذا سكت : سكت بعلم إذا كان السكوت صوابًا.

قليل الخوض فيما لا يعنيه، يخاف من لسانه أشد مما يخاف من عدوه. يحبس لسانه كحبسه لعدوه: ليأمن من شره وشر عاقبته.

قليل الضحك يكره المزاح خوفًا من اللعب، فإن مزح: قال حقًا، باسط الوجه، طيب الكلام، لا يمدح نفسه بما فيه، فكيف بما ليس فيه؟ يحذر نفسه أن تغلبه على ما تهوى مما يسخط مولاه، لا يغتاب أحدًا، ولا يحقر أحدًا، ولا يسب أحدًا، ولا يشمت بمصيبة، ولا يبغي على أحد، ولا يحسده، ولا يسيء الظن بأحد إلا لمن يستحق، يحسد بعلم، ويظن بعلم، ويتكلم بما في الإنسان من عيب بعلم، ويسكت عن حقيقة ما فيه بعلم، قد جعل القرآن والسنة والفقه دليله إلى كل خلق حسن جميل، حافظًا لجميع جوارحه عما نهي عنه، إن مشى مشى بعلم، وإن قعد قعد بعلم، يجتهد ليسلم الناس من لسانه ويده، ولا يجهل، فإن جهل عليه حلم، لا يظلم، وإن ظلم عفى، لا يبغي، وإن بغي عليه صبر بكظم غيظه؛ ليرضي ربه، ويغيظ عدوه، متواضع في نفسه، إذا قيل له الحق قبله من صغير أو كبير.

وقال محمد بن الحسين: «**ينبغي لمن علمه الله كتابه فأحب أن يجلس في المسجد يقرأ القرآن لله**»، ويغتنم قول النبي ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[1].

فينبغي له أن يستعمل من الأخلاق الشريفة ما يدل على فضله وصدقه، وهو أن يتواضع في نفسه إذا جلس في مجلسه، ولا يتعاظم في نفسه، ويستحب له أن يستقبل القبلة في مجلسه، ويتواضع لمن يلقنه القرآن ويقبل عليه إقبالاً جميلاً.

وينبغي له أن يعدل مع كل إنسان يلقنه، أن يصلح لمثله إذا كان يتلقن عليه الصغير والكبير، والغني والفقير، فينبغي له أن يوفي كل ذي حق حقه، ويعتقد الإنصاف إن كان يريد وجه الله بتلقينه القرآن، فلا ينبغي له أن يقرب الغني، ويبعد الفقير، ولا ينبغي له أن يرفق بالغني وَيُعَنِّفَ بالفقير، فإن فعل هذا فقد جار في فعله فحكمه أن يعدل بينهما، ثم ينبغي له أن يحذر على نفسه التواضع للغني، والتكبر على الفقير، بل يكون متواضعًا للفقير، مقربًا لمجلسه متعطفًا عليه يتحبب إلى الله بذلك.

عن الربيع بن أنس في قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ (لقمان:١٨).

قال: يكون الغني والفقير عندك في العلم سواء.

* * * *

(١) البخاري في فضائل القرآن (٤٦٣٩)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٣٢)، وأبو داود في الصلاة (١٢٤٠)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة (٣٨٩، ٤٦٩)، كلهم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المبحث السابع
التوابـــون
٢١ـ فرح اللـه بتوبـة عبده

الله الله في التوبـة، والاسـتغفار مـن الزلـة والحوبـة، ومـا أحـوج اللـسان إلى طـول حبس، والجنان إلى طول استغفار وتوبة ، والله سبحانه أفرح بتوبة عبـده حـين يتـوب إليه من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابـه في أرض دويـة مهلكـة، إذا وجـدها كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في أرض أنه قال:«**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنـام فاسـتيقظ وقـد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش، ثـم قـال: أرجـع إلى المكـان الـذي كنـت فيـه فأنـام حتى أموت فوضع رأسـه عـلى سـاعده ليمـوت فاسـتيقظ وعنـده راحلتـه عليهـا زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته**»[١] .

والمقصود أن هذا الفرح المذكور، إنما يكون بعد التوبة من الذنب، فالتوبة والذنب لا زمان لهذا الفرح، ولا يوجد الملزوم بدون لازمه، وإذا كان هذا الفرح المذكور، إنـما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب، فحصوله في دار النعيم التي لا ذنب فيهـا ولا مخالفـة ممتنع، ولما كان هذا الفرح أحب إلى الرب سبحانه من عدمه، اقتضت محبتـه لـه، خلـق الأسباب المفضية إليه؛ ليترتب عليها المسبب الذي هو محبوب له[٢] .

وأيضًا فإن الله سبحانه جعل الجنة دار جزاء وثواب، وقسم منازلها بين أهلها عـلى

(١)البخاري في الدعوات (٥٨٣٣)، ومسلم في التوبة (٤٩٢٩)، من حـديث عبـدالله بـن مـسعود رضي الله عنه.

(٢)انظر: مفتاح دار السعادة ، ٨/ ١٨ .

قدر أعمالهم، وعلى هذا خلقها سبحانه لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسماؤه وصفاته، فإن الجنة درجات بعضها فوق بعض، وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « **في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين الأرض والسماء** »[١] .

وحكمة الرب سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها ، وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته، ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم، وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الزخرف)، وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (النحل).

قالوا: وأما نفي دخلوها بالأعمال كما في قوله ﷺ: « **قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله**»، قالوا: «**ولا أنت يا رسول الله؟**»، قال: «**ولا أنا**»[٢] .

فالمراد به نفي أصل الدخول، وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفى معها الدخول، فالمقتضية هي الباء السببية الدالة على أنَّ الأعمال سبب للدخول مقتضية له، كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها[٣] ، فأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لولا تغمد الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة، فليس عمل العبد وإن تناهى موجبًا بمجرده لدخول الجنة ولا عوضًا لها فإن

---

(١)الترمذي في صفة الجنة (٢٤٥٤)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢١٦٣٧، ٢١٦٧٦) كلهم من حديث عُبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٢)سبق تخريجه في ص ٢٩ .

(٣)والباء التي نفىٰ بها الدخول هي باء المعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم: اشتريت هذا بهذا.

أعماله، وإن وقعت منه على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، فهي لا تقاوم نعمة الله التي أنعم بها عليه في دار الدنيا ولا تعادلها، بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها في مقابلة اليسير من نعمه وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها، فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له، ولو رحمه لكانت رحمته خيرًا له من عمله.



٢٢ ـ طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ في الحث على التوبة [١]

١ ـ عن أبي موسى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢] .

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه** »[٣] .

٣ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**للجنة ثمانية أبواب: سبعة مغلقة، وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه**»[٤] .

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: « **لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم**»[٥] .

٥ ـ وعن جابر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **وإن من السعادة أن يطول عمر العبد، ويرزقه الله الإنابة** »[٦] .

---

(١)انظر: الترغيب والترهيب للمنذري ١ ، كتاب التوبة والزهد .

(٢)مسلم في التوبة (٤٩٥٤)، وأحمد في مسند الكوفيين (١٨٧٠٨، ١٨٧٩٣).

(٣)مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٤٨٧٢)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٣٨٦، ٨٧٦٧، ٩١٤٤، ١٠١٧٦).

(٤)رواه أبو يعلىٰ، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٨) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بإسناد جيد .

(٥)رواه ابن ماجة بإسناد جيد في الزهد (٤٢٣٨).

(٦)أحمد في باقي مسند المكثرين (١٤٠٣٧)، و الحاكم، وقال : صحيح الإسناد .

٦ ـ وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يسبق الدائب المجتهد، فليكف عن الذنوب** »(١).

٧ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « **مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته، يجول ثم يرجع إلى آخيته، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان، فأطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين**»(٢).

٨ ـ وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: « **كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون** »(٣).

٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ قال: « **إن عبدًا أصاب ذنبًا، وربما قال: أذنب ذنبًا فقال: رب أذنبتُ، وربما قال: أصبتُ فاغفر لي، فقال ربه: أَعَلِمَ عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، غفرتُ لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا أو أذنب ذنبًا، فقال: رب أذنبتُ أو أصبت آخر فاغفره، فقال: أَعَلِمَ عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، غفرتُ لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا، وربما قال: أصاب ذنبًا، قال: قال: رب أصبتُ أو قال: أذنبتُ آخر فاغفره لي، فقال: أَعَلِمَ عبدي أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به، غفرتُ لعبدي ثلاثًا فليعمل ما شاء**»(٤).

---

(١) رواه أبو يعلىٰ، رقم الحديث (٤٨٢٢)، جـ١٠/ ٢٠٧، ورواته رواة الصحيح إلا يوسف بن ميمون.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، باب التوبة ٢/ ٢٣٠، وأبو يعلىٰ الموصلي، باب مثل المؤمن ومثل الإيمان ٢/ ٣٤٥.

(٣) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٢٣)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجة في الزهد (٤٢٤١)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (١٢٥٧٦)، والدارمي في الرقاق (٢٦١١).

(٤) البخاري في التوحيد (٦٩٥٣)، ومسلم في التوبة (٤٩٥٣)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٦٠٧).

١٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع، واستغفر صُقِلَ قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾** (المطففين: ١٤)»[١] .

١١ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالت قريش للنبي ﷺ ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبًا، فإن أصبح لنا ذهبًا اتبعناك، فدعا ربه فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «**إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة**». قال: « **بل باب التوبة والرحمة**»[٢].

١٢ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما،عن النبي ﷺ قال: « **إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر** »[٣] .

١٣ ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، أوصني؟ قال: « **عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وماعملت من سوء فأحدث له توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية** »[٤].

١٤ ـ وروي عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **إذا تاب العبد**

---

(١)الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٥٧)، وقال : حديث حسن صحيح، وابن ماجة في الزهد (٤٢٣٤)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٦١١).

(٢)رواه الطبراني (١٢٥٦٧)، ورواته رواه الصحيح .

(٣)الترمذي في الدعوات (٢٤٦٠)، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة في الزهد (٤٢٤٣)، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٥٨٨٥).

(٤)صحيح الترغيب والترهيب (٣١٤٤)، وهو حديث حسن لغيره، ورواه الطبراني بإسناد حسن إلا أن عطاء لم يدرك معاذًا، ورواه البيهقي فأدخل بينهما رجلاً لم يسم.

من ذنوبه أنسى الله الحفظة ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومقامه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد بذنب »[١].

١٥ ـ ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: « **النادم ينتظر من الله الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله، وسوء عمله، وإنما الأعمال بخواتيمها، والليل والنهار مطيتان، فأحسنوا السير بهما إلى الآخرة، واحذروا التسويف، فإن الموت يأتي بغتةً، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة)[٢].

١٦ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « **التائب من الذنب كمن لا ذنب له** »[٣].

١٧ ـ وعن حميد الطويل قال: قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه: أقال النبي ﷺ: « **الندم توبة؟** »، قال: «**نعم** »[٤].

١٨ ـ وعن عبد الله بن مغفل قال: دخلت أنا وأبي على ابن مسعود رضي الله عنه، فقال له أبي سمعت النبي ﷺ يقول: «**الندم توبة؟**»، قال: «**نعم**»[٥].

١٩ ـ وعن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قال: « **ما علم الله من عبد**

---

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة (٥/ ٤٣٩) رقم الحديث (٢٤١٨) : هذا الحديث ضعيف، وأشار المنذري في الترغيب (٤/ ٧٥) لضعفه.

(٢) ضعيف الترغيب والترهيب (١٨٣٣)، ضعيف.

(٣) رواه ابن ماجة والطبراني في الكبير (١٨٢٢٣)، عن أبي سعد الأنصاري عن أبيه.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه .

(٥) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد .

ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفره منه»[١] .

٢٠ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **ليس أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»**[٢] .

٢١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النبي ﷺ قال: « **والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»**[٣] .

٢٢ ـ وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه أن: امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ، وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا نبي الله أصبت حدًا، فأقمه عليَّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: «**أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها**»، ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ، فشكت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلَّى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله، وقد زنت؟! فقال: «**لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى**»[٤] .

* * * *

(١)الحاكم (٧٧٥٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢)مسلم في التوبة (٤٩٥٥، ٤٩٥٨).

(٣)مسلم في التوبة (٤٩٣٦)، وأحمد في مسند بني هاشم (٢٤٩٢)، وباقي مسند المكثرين (٧٧٣٦).

(٤)مسلم في الحدود (٣٢٠٩)، والترمذي في الحدود (١٣٥٥)، والنسائي في الجنائز (١٩٣١)، وأبو داود في الحدود (٣٨٥٢)، وأحمد في مسند البصريين (١٩٠١٥، ١٩٠٥٦، ١٩٠٧٩)، والدارمي في الحدود (٢٢٢٢).

٢٣ـ ذكر التوابيـن من الصالحيـن [١]

هـذه سـياحة عامـة في عـالم التوبـة نقتطـف فيهـا أزهـارًا مـن مواقـف وطرائـف الصالحين، عسانا أن نقتفي أثرهم ونلحق بركبهم .

توبة أبي خيثمة رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: تخلف أبو خيثمة ـ أحد بني سالم ـ عـن رسـول الله ﷺ في غـزوة تبوك، حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجـع أبـو خيثمـة ذات يـوم إلى أهلـه في يـوم حـار فوجد امرأتين له في عريشين له في حـائط لهـما قـد رشـت كـل واحـدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء وهيأت له طعامًا، فلما دخل قام على بـاب العـريش ينظـر ثـم قـال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر ـ يعني بالـضح: الـشمس ـ وأبـو خيثمـة في ظل ومـاء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ما هذا بالنصف!

والله لا أدخـل عـريش واحـدة مـنكما حتـى ألحـق برسـول الله ﷺ، فهيئـا لي زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خـرج في طلـب رسـول الله ﷺ فأدركـه حـين نـزل تبوك، قال: وقـد كـان أدرك أبـا خيثمـة عمـير بـن وهـب الجمحـي في الطريـق يطلـب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بـن وهـب: إن لي ذنبًا فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل.

ثم سار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو بتبوك فلما طلع قال الناس:هذا راكـب مقبل فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**»! فلما دنا قال النـاس: يـا رسـول الله! هـذا والله أبو خيثمة!

---

(١)من كتاب التوابين ، لابن قدامة ، ص٣ .

فلما أناخ سلم على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أولى لك أبا خيثمة!**» ثم أخبره الخبر فقال له خيرا ًا! ودعا له.

توبة كعب بن مالك [(١)] :

وذلك لما تخلف في غزوة تبوك بلا عذر، ولما عاد كان ما كان مما سنرويه الآن على لسان كعب نفسه، فعن معمر عن الزهري قال: أخبرني ابن كعب بن مالك عن أبيه قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرًا، ولم يعاتب النبي ﷺ أحدًا تخلف عن غزوة بدر، إنما خرج يريد العير فخرجت قريش مغوثين لعيرهم فالتقوا على غير موعد كما قال: الله تعالى، ولعمري إن أشرف مشاهد رسول الله ﷺ في الناس لبدر، وما أحب أني كنت شهدتها مكان بيعتي ليلة العقبة حيث تواثقنا على الإسلام، ثم لم أتخلف بعد عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها، حتى إذا كانت غزوة تبوك وهي آخر غزاة غزاها وآذن النبي ﷺ الناس بالرحيل، وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوهم، وذلك حين طابت الظلال، وطابت الثمار، وكان قلما أراد غزوة إلا ورى بغيرها، وكان يقول: «**الحربُ خُدْعَةُ**» ــ إلا غزوة تبوك فإنه جلى للناس أمرهم.

فأراد النبي ﷺ في غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهبته، وأنا أيسر ما كنت قد جمعت راحلتين، وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد وخفة الحال، وأنا في ذلك أصغي إلى الظلال وطيب الثمار، فلم أزل كذلك حتى قام رسول الله ﷺ غاديًا بالغداة وذلك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس، فأصبح غاديًا فقلت: أنطلق غدًا إلى السوق فأشتري جهازي ثم ألحق بهم، فانطلقت إلى السوق من الغد فعسر علي بعض

---

(١)من كتاب التوابين ، لابن قدامة ، ص ٤٧، ٤٨ .

شأني فرجعت، فقلت: أرجع غدًا إن شاء الله فألحق بهم، فعسر علي بعض شأني أيضًا، فقلت: أرجع غدًا إن شاء الله، فلم أزل كذلك حتى ألبس بي الذنب، وتخلفت عن رسول الله ﷺ، فجعلت أمشي في الأسواق وأطوف بالمدينة فيحزنني أني لا أرى أحدًا تخلف إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق، وكان ليس أحد تخلف إلا رأى أن ذلك سيخفى عليه، وكان الناس كثيرًا لا يجمعهم ديوان.

وكان جميع من تخلف عن النبي ﷺ بضعة وثمانين رجلاً ولم يذكرني النبي ﷺ حتى بلغ تبوكًا قال: «**ما فعل كعب بن مالك؟**».

قال رجل من قومي: خلفه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه!

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا نبي الله ما علمنا عليه إلا خيرًا.

قال: فبينما هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب، فقال النبي ﷺ: «**كن أبا خيثمة**»! فإذا هو أبو خيثمة .

فلما قضى النبي ﷺ غزوة تبوك وقفل ودنا من المدينة، جعلت أتذكر بماذا أخرج به من سخط النبي ﷺ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي حتى إذا قيل: النبي ﷺ هو مصبحكم غدًا بالغداة ــ زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو إلا بالصدق، فدخل النبي ﷺ ضحى، فصلى في المسجد، وكان إذا جاء من سفر فعل ذلك: دخل المسجد فصلى فيه ركعتين، ثم جلس فجعل يأتيه من تخلف فيحلفون له ويعتذرون إليه فيستغفر لهم ويقبل علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله عز وجل.

فدخلتُ المسجد فإذا هو جالس، فلما رآني تبسم تبسم المغضب، فجئت فجلست بين يديه، فقال:«**ألم تكن ابتعت ظهرك**»، فقلت: بلى يا نبي الله!

قال:« **فما خلفك؟**»، فقلت: والله لو بين يدي أحد من الناس غيرك جلست

لخرجت من سخطه علي بعذر ولقد أوتيت جدلاً، ولكن قد علمت يا نبي الله أني إن أخبرتك اليوم بقول تجد علي فيه وهو حق فإني أرجو فيه عقبي الله، وإن حدثتك اليوم حديثًا ترضى عني فيه وهو كذب أوشك الله أن يطلعك علي، والله يا نبي الله ما كنتُ قط أيسر ولا أخف حالاً مني حين تخلفت عنك.

قال: « **أما هذا فقد صدقكم الحديث فقم حتى يقضي الله فيك**».

فقمت فثار على إثري أناس من قومي يؤنبونني فقالوا: «**والله ما نعلمك أذنبت ذنبًا قط قبل هذا، فهلا اعتذرت إلى نبي الله ﷺ بعذر يرضي عنك فيه! وكان استغفار رسول الله ﷺ سيأتي من وراء ذنبك ولم تقف نفسك موقفًا لا تدري ماذا يقضي لك فيه، فلم يزالوا يؤنبونني، حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي، فقلت: هل قال هذا القول أحد غيري؟ قالوا: نعم قاله هلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة.**

فقلت: والله لا أرجع إليه في هذا أبدًا ولا أكذب نفسي.

توبة عبد الله بن الزبعري الشاعر رضي الله عنه[١] :

هرب يوم الفتح هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هانىء بنت أبي طالب، وعبد الله بن الزبعري إلى نجران، وكانا شاعرين يهجوان المسلمين، ويقال: إن ابن الزبعري أشعر شعراء قريش، فأرسل حسان بن ثابت أبياتًا يريد بها ابن الزبعري قال فيها:

لا تعدمن رجلٍ أحلَّكَ بُغضُهُ ... نجرانَ في عيش أحذَّ لئيمِ
بَليت قناتُك في الحروب فَأُلفيت ... خمانةً جوفَاء ذاتَ وصومِ

---

(١)السابق، ص ٥٩ .

غـضبَ الإلـهُ عَـلى الزَّبَعْـرَي وابنـهِ وَعَـذاب سُـوءٍ في الحيـاةِ مُقـيمِ

فلما جاءه شعر حسان تهيأ للخروج فقال له هبيرةُ: أين تريد يا بن عمي؟

قال: أردت والله محمدًا قال: أتريد أن تتبعه؟ قال: إي والله!

قال هبيرة: يا ليت أني رافقت غيرك! والله ما ظننت أنك تتبع محمدًا أبدًا.

قال ابن الزبعري: فعلى أي شيء أقيم مع بني الحارث بن كعب وأترك ابن عمي، وخير الناس وَأَبَرَّهُمْ ومع قومي وداري؟

فانحدر ابن الزبعري حتى جاء رسول الله ﷺ، وهو جالس في أصحابه فلما نظر رسول الله ﷺ إليه قال: «هذا ابن الزبعري ومعه وجه فيه نُور الإسلام».

فلما وقف على رسول الله ﷺ قال: «السلام عليك يا رسول الله! شهدت أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، والحمد لله الذي هداني للإسلام لقد عاديتك وأجلبت عليك، وركبت البعير والفرس، ومشيت على قدمي في عداوتك، ثم هربت منك إلى نجران، وأنا أريد أن لا أقرب الإسلام أبدًا ثم أرادني الله منه بخير، وألقاه في قلبي، وحببه إلي».

* * * *

٢٤ ـ من توبة السلف والمشاهير

توبة هارون الرشيد [١] :

عن الفضل بن الربيع قال: حجَّ أمير المؤمنين هارون الرشيد فبينا أنا نائم بمكة، إذ سمعت قرع الباب فقلت: من هذا؟

قال: أجب أمير المؤمنين، فخرجتُ مسرعًا.

فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليَّ لأتيتك.

فقال: ويحك قد خطر في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله.

فقلت: هاهنا سفيان بن عيينة.

فقال: امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب فقال: من ذا؟.

قلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعًا.

فقال: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إلي لأتيتك.

فقال له: خذ لما جئناك له ـ رحمك الله ـ فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟

قال: نعم قال: اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا انظر لي رجلاً أسأله.

فقلت: هاهنا عبد الرزاق بن همام.

فقال: امض بنا إليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال: من هذا؟.

فقلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعًا.

---

(١) السابق ، ص ٨٣ .

فقال: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إلي لأتيتك قال: خذ لما جئناك له - رحمك الله - فحادثه ساعة ثم قال: أعليك دين؟ قال: نعم، قال: يا عباسي! اقض دينه ثم انصرفنا.

فقال لي: ما أغنى عني صاحبك شيئًا انظر لي رجلاً أسأله.

قلت: هاهنا الفضيل بن عياض .

فقال: امض بنا إليه فأتيناه وإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها.

قال: اقرع الباب!

فقرعته فقال:من هذا ؟

قلت: أجب أمير المؤمنين!

فقال: ما لي ولأمير المؤمنين ؟

فقلت: سبحان الله! أما عليك طاعته؟

فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه .

فقال: يا لها من كف ما أنعمها وألينها إن نجت غدًا من عذاب الله .

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي .

فقال له: خذ لما جئناك له - رحمك الله - .

فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم : قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ، فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة؟!

فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا، وليكن

إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال: له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم جعل هارون يبكي ويفيض دمعه.

توبة إبراهيم بن أدهم [(١)]:

عن محمد بن إسحاق السراج قال: سمعت إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم يقول: قلت: يا أبا إسحاق! كيف كان أوائل أمرك؟ قال: كان أبي من أهل «**بلخ**»، وكان من ملوك خراسان وحبب إلينا الصيد، فخرجت راكبًا فرسي وكلبي معي، فبينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب فحركت فرسي فسمعت نداءً من ورائي: «**ليس لذا خُلِقْتَ، ولا بذا أُمِرْتَ!**»، فوقفتُ أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحدًا..! فقلت: لعن الله إبليس!

ثم حركت فرسي فأسمع نداء أجهر من ذلك: «**يا إبراهيم! ليس لذا خُلِقْتَ، ولا بذا أُمِرْتَ!**»، فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلا أرى أحدًا فقلت:لعن الله إبليس!

ثم حركت فرسي فسمعت نداء من قربوس سرجي: «**يا إبراهيم! ليس لذا خُلِقْتَ، ولا بذا أُمِرْتَ!**»

فوقفت فقلت: «**أنبهت! أنبهت! جاءني نذير من رب العالمين والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني ربي**»، فرجعت إلى أهلي، ثم جئت إلى أحد رعاة أبي

---

(١)انظر: التوابين ، ص ٧٩ .

فأخذت منه جبة وكساء وألقيت ثيابي إليه.

ثم أقبلت إلى العراق أرض ترفعني وأرض تضعني حتى وصلت إلى العراق، فعملت بها أيامًا فلم يصف لي منها - يعني الحلال - فسألت بعض الشيوخ فقال لي: «**إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام**».

فصرت إلى بلاد الشام فسرت إلى مدينة يقال لها: المنصورة وهي المصيصة، فعملت بها أيامًا فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض الشيوخ فقالوا لي: إن أردت الحلال الصافي فعليك بطرسوس، فإن فيها المباحات والعمل الكثير .

فتوجهت إلى طرسوس فعملت بها أيامًا أنظر البساتين وأحصد الحصاد، فبينا أنا قاعد على باب البحر جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستانه، فكنتُ في البستان أيامًا كثيرة.

فإذا أنا بخادم قد أقبل ومعه أصحابه، فقعد في مجلسه ثم صاح: يا ناطور!

فقلتُ: هو ذا أنا، فقال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه، فذهبت فأتيته بأكبر رمان فأخذ الخادم رمانة فكسرها فوجدها حامضة فقال: يا ناطور أنت في بستاننا منذ كذا وكذا تأكل فاكهتنا وتأكل رماننا ولا تعرف الحلو من الحامض؟

قال إبراهيم: قلت والله ما أكلت من فاكهتك شيئًا ولا أعرف الحلو من الحامض.

فأشار الخادم إلى أصحابه فقال: أما تسمعون كلام هذا؟ أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا؟ فانصرف فلما كان من الغد ذكر صفتي في المسجد فعرفني بعض الناس فجاء الخادم ومعه عنق من الناس، فلما رأيته قد أقبل مع الناس اختفيت خلف الشجر والناس داخلون.

إبراهيم بن أدهم والبحر الهائج :

قال الشكلي حدثنا علي بن سعيد قال: حدثنا إبراهيم بن بشار قال: ركبنا البحر مع إبراهيم بن أدهم، فبينا نحن نسير بريح طيبة، وكانت مراكب كثيرة، فعصفت ريح شديدة على المراكب، فتقطعت وإبراهيم ملتف في عباءة مستلق، فجاء أهل المركب إليه فقالوا: يا هذا ما ترى ما نحن فيه وأنت مستلق غير مكترث؟

فجلس وهو يقول: لا أفلح من لم يكن استعد لمثل هذا اليوم!

ثم حرك شفتيه وإذا هاتف ينادي من اللجة: تخافون وفيكم إبراهيم بن أدهم؟ أيها الريح والبحر الهائج اسكنا بإذن الله! فسكن البحر وذهبت الريح حتى صار البحر كأنه دف، يعني لوح خشب.

توبة شقيق البلخي :

قال علي بن محمد بن شقيق: كان لجدي ثلاثمائة قرية ولم يكن له يوم مات كفن يكفن فيه قدمه كله بين يديه قال: وكان خرج إلى بلاد الترك لتجارة ـ وهو حدث ـ فنزل عند قوم يقال لهم: الخلوخية يعبدون الأصنام، فدخل إلى بيت أصنامهم وعالمهم قد حلق رأسه ولحيته ولبس ثيابًا حمرًا أرجوانية، فقال له شقيق: إن هذا الذي أنت فيه باطل، ولهؤلاء ولك ولهذا الخلق خالق صانع ليس كمثله شيء، له الدنيا والآخرة، قادر على كل شيء رازق كل شيء.

فقال له الخادم: ليس يوافق قولك فعلك، فقال له شقيق: كيف ذلك؟

قال: زعمت أن لك خالقًا قادرًا على كل شيء، وقد تعنيت إلى هاهنا لطلب الرزق، ولو كان كما تقول كان الذي يرزقك هاهنا يرزقك ثم فتربح العناء، قال شقيق: فكان سبب زهدي كلام التركي، فرجع فتصدق بجميع ما ملك، وطلب

العلم[١].

توبة جعفر البرمكي [٢] :

قال عبد الحميد: كنت في مجلس جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أعرض عليه متاع مصر، وهو في قبة من عاج مركب قد غشاها بملحم، إذ دخل عليه محمد ابن السماك، فقال: أسمعني بعض كلامك ـ يرحمك الله ـ فقال: يا أبا الفضل! لا أحدثك عن الماضين ولا عن الملوك السابقة ولا الأكاسرة، ولكن أخبرك بما شهدت وعاينت منذ أعوام من ابن عم لأمير المؤمنين موسى بن محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وحدثه في هذا الحديث فرأيت جعفرًا جعل يبكي ويكثر البكاء ويقول: « **هذا كله من توفيق الله تعالى إياه وسعادته له، اللهم فكما أسعدته بطاعتك، ووفقته لرضاك، وعصمته حتى نال ذلك كله بإرادتك، وفقنا للعمل الصالح برحمتك، واختم لنا بعفوك ومغفرتك يا أرحم الراحمين**».

* * * *

(١)هذا الكلام فيه نظر من أوجه عدة : أهمها أن الله كافل الأرزاق هو سبحانه طلب من عباده السعي إلىٰ طلبها وتحصيلها فقال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨)، وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة: ١٠)، وعمومـًا فقد سقنا القصة للاعتبار والادكار.

(٢)انظر: التوابين، لابن قدامة ، ص٩٦ .

المبحث الثامن
مهلكات السجايا والصفات
٢٥ ـ الغرور أقسامه ودرجاته[١]

أحبتي في الله:

إننا نعيش في عصر ملؤه آفات، وتكمن في جنباته علينا الحسرات، ولا يرثي لنا، ولا عاصم لنا إلا الله بفضله واتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ.

والله الله، علينا ولنا، وفينا إذْ أهلكتنا المهلكات وما أكثرها حتى تردت بنا بعيدًا عن ركب الحضارة، وإذا تأملنا هذه الآفات في سياق تلك الزهديات، فإننا نجد آفة كم أضلتنا وانحدرت بنا عن سواء السبيل، ألا وهي آفة الغرور، ولله ما أعظمها من آفة!!ولنعلم أن الغرور هو محض هلاك الدول والمجتمعات والأفراد ولو تبصرنا حضارتنا لعلمنا مدى إهلاكه وفتكه بها، ومن ثم انتهض المصلحون والمجددون يدعون لعيش الواقع وممارسته بعيدًا عن الغرور وعوالمه الخيلاء الواهمة، وهذا هو الإمام الغزالي يصنف كتابًا قائمًا في هذا الباب ويسميه بالمغرورين.

وها نحن ذا ننهل من بعض فيضه ونرد حياضه نرشف منها نفعنا الله وإياكم بها، موردين مقدمته الجيدة لكتابه على ما يلي:

قال الغزالي في مقدمة كتابه :

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه، هذا كتاب الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين. اعلم أن الخلق قسمان: حيوان وغير

---

(١)انظر: مختصر منهاج القاصدين «باب الغرور»، بتصرف.

حيوان، والحيوان قسمان : مكلف ومهمل.

فالمكلف من خاطبه الله بالعبادة وأمره بها، ووعده الثواب عليها ونهاه عن المعاصي وحذره العقوبة، ثم المُكلف قسمان : مؤمن وكافر، والمؤمن قسمان : طائع وعاص، وكل من الطائعين والعاصين ينقسم قسمين: عالم وجاهل، ثم رأيت الغرور لازمًا لجميع المؤمنين المكلفين والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين.

وأنا بحمد الله أكشف عن غرورهم وأبين الحجة فيه، وأوضحه غاية الإيضاح، وأبينه غاية البيان، بأوجز ما تكون العبارة، وأبدع ما يكون من الإشارة، والمغرورون من الخلق ما عدا الكافرين أربعة أصناف:صنف من العلماء، وصنف من العباد، وصنف من أرباب الأموال، وصنف من المتصوفة[١] .

غرور الكافر [٢] :

أحبتي في الله:

وأول ما نبدأ به غرور الكافر وهو قسمان: منهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غره بالله الغرور، أما الذين غرتهم الحياة الدنيا وهم الذين قالوا: النقد خير من النسيئة، ولذات الدنيا يقين، ولذات الآخرة شك، ولا يترك اليقين بالشك، وهذا قياس فاسد، وهو قياس إبليس لعنه الله تعالى في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ (ص:٧٦)، فظن أن الخيرية في النسب.

وعلاج هذا الغرور شيئان : إما بتصديق وهو الإيمان، وإما ببرهان.

أما التصديق فهو أن يصدق الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

(١)انظر: أصناف المغرورين، ص١ .

(٢)انظر: أصناف المغرورين، ص٢ .

(القصص: ٦٠)، ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ (آل عمران: ١٨٥)، وتصديق الرسول ﷺ فيما جاء به.

وأما البرهان: فهو أن يعرف وجه فساد قياسه، أن قوله: الدنيا نقد والآخرة نسيئة مقدمة صحيحة، وأما قوله: النقد خير من النسيئة، فهو محل التلبيس، وليس الأمر كذلك، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار، والمقصود فهو خير، وإن كان أقل منها، فالنسيئة خير منه، ومعلوم أن الآخرة أبدية، والدنيا غير أبدية، وأما قوله: ولذات الدنيا يقين، ولذات الآخرة شك فهو أيضًا باطل، بل ذلك يقين عند المؤمنين.

فائدة فيمن يشاركون الكفار غرورهم [1]:

إن المؤمنين بربهم والمؤمنين بألسنتهم وعقائدهم إذا ضيعوا أمر الله تعالى وهي الأعمال الصالحة، وتدنسوا بالشهوات، فهم مشاركون الكفار في هذا الغرور.

فالحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعًا غرور، فأما غرور الكافرين بالله تعالى فمثاله: قول بعضهم في أنفسهم بألسنتهم: إنه إن كان الله معيدنا فنحن أحق بها من غيرنا، كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الكهف حين قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ (الكهف).

لكن ما سبب هذا الغرور ؟

وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله تعالى، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله تعالى عليهم في الدنيا، فيقيسون عليها نعم الآخرة، ومرة ينظرون إلى تأخير عذاب الله عنهم في الدنيا فيقيسون عذاب الآخرة، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ

---

(١) انظر: أصناف المغرورين، ص٣.

فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ (المجادلة).

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء فيزدرونهم ويقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ ﴾ (الأنعام: ٥٣)، ويقولون: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ ﴾ (الأحقاف: ١١).

وترتيب القياس الذي نظم في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعم الدنيا، فكل محسن محب، وكل محب محسن. وليس كذلك، بل يكون محسنًا ولا يكون محبًا، بل ربما يكون الإحسان سبب هلاكه على الاستدراج، وذلك محض الغرور بالله عز وجل، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن الله عز وجل يحمي عبده المؤمن في الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه**»[١] .

الغرور بين الخوف والرجاء :

إن الخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي.

والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا، ثم إن أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون.

ولو كان هذا الأمر يدرك بالمنى، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم؟!

وهل ذم أهل الكتاب بقوله: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ (الأعراف: ١٦٩)، إلا لمثل هذا الحال؟!

ويقرب من هذا الغرور، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصٍ، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد

---

(١)أحمد في باقي مسند الأنصار (٢٢٥٢٠) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه .

تناول من الغصب[١] أضعاف ذلك، ولعل الذي تصدق به من المغصوب، ويتكل على تلك الصدقة، وما هو إلا كمن وضع درهمًا في كفه وألفًا في أخرى، ثم رجا أن يرجح الدرهم بالألف، ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه على سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه[٢]، كالذي يستغفر الله ويسبحه مائة مرة في اليوم، ثم يظل طول النهار يغتاب المسلمين، ويتكلم بما لا يُرضي، فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه.

* * * *

---

(١)الغصب: أخذ الشيء قهراً وظلماً المعجم الوسيط (غصب) (٢/ ٦٥٣).

(٢)أي: لا يدقق النظر فيها ليعرفها، المعجم الوسيط (فقد) (٢/ ٦٩٧) .

٢٦ ـ الاغترار .. واقع بالعلماء والعباد

الصنف الأول: العلماء:

فأما أهل العلم فالمغترون منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامهم الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل، ولولا العمل لم يكن له قدر، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ (الشمس).

ولم يقل : قد أفلح من تعلم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر، كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ (الأعراف:١٧٦)، ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٥).

ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها، كالكبر والحسد والرياء، وطلب العلو، وطلب الشهرة، فهؤلاء زينوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قول النبي ﷺ: « **إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[١].

فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعًا، فنبت معه حشيش

---

(١) مسلم في البر والصلة والآداب (٤٦٥١)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٤٩٣، ١٠٥٣٧)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يفسده، فأمر بقلعه، فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله، فلم تزل أصوله تقوى.

وفرقة أخرى أحكموا العلم، وطهروا جوارحهم وزينوها بالطاعات، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك، ولكن بقيت في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها وأهملوها، فترى أحدهم يسهر ليله وينصب نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها، ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على نفسه، إما صريحًا بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمنًا بالطعن في غيره ليبين في طعنه في غيره أنه أفضل من ذلك الغير، وأعظم منه علمًا.

فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا يفطن لها إلا الأكياس الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويحرص على صلاحها.

أحبتي في الله:

إن من سرته حسنته وساءته سيئته، فهو مرجو أمره، بخلاف من يزكي نفسه ويظن أنه من خيار الخلق.

فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم؟!

فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة

وارتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل، والمشي إلى ما لا يجوز، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخر من حيث العلم.

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين، ثم هؤلاء طائفتان: ضالة، ومحقة، فالضالة التي تدعو إلى غير السنة، والمحقة التي تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم.

أما الضالة، فاغترارها ظاهر، وأما المحقة فاغترارها من حيث إنها ظنت أن الجدال أهم الأمور، وأفضل القربات في دين الله تعالى، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل، فليس بكامل الإيمان، فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات، وعميت بصائرهم، فلم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيرًا من البدع والهوى، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضًا للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال، فإن رأوه مصرًا على بدعته هجروه من غير مماراة ولا جدل، وقد روي في الحديث: « **ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»[1] .

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين

(١)الترمذي في تفسير القرآن (٣١٧٦)، وابن ماجة في المقدمة (٤٧)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢١١٤٣، ٢١١٧٩) كلهم من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه، فهم أعظم الناس غرة.

ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر ، وزعموا أنهم علماء الأمة، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، ولو عقلوا لعلموا أن مضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عمره في معرفة لغة الترك، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكتفي من اللغة بالغريبين:غريب القرآن، وغريب الحديث، ومن النحو بما يقوم به اللسان.

فأما التعمق إلى درجات لا تتناهى، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم، ومثال التعمق في ذلك، مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، مقتصرًا على ذلك، وذلك غرور؛ لأن المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات.

* * * *

٢٧ ـ ذم الكبر والعجب، نعوذ بالله منهما

ذم الكبر:

قال الله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ (النحل).

وفي الحديث الصحيح من إفراد مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** » [١].

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال:« **قالت النار: أوثرت بالمتكبرين** » [٢].

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : « **من كانت معصيته في شهوة، فارج له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهيًا فغُفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبرًا فلعن** ».

وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال:« **من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة** »، فقال أبو بكر: « **يا رسول الله إن أحد شقي إزاري ليسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟** »، فقال رسول الله ﷺ:« **لست ممن يصنعه خيلاء** »[٣].

---

(١) مسلم في الإيمان (١٣١، ١٣٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٢)، وأبو داود في اللباس (٣٥٦٨)، وابن ماجة في المقدمة (٥٨)، والزهد (٤١٦٣)، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٣٦٠٠، ٤٠٨٣)، كلهم من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري في تفسير القرآن (٤٤٧٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥٠٨٢، ٥٠٨٣)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٨١٧)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ما عدا أحمد بدون راوٍ.

(٣) البخاري في المناقب (٣٣٩٢)، واللباس (٥٣٣٨)، وأبو داود في اللباس (٣٥٦٣)، وأحمد في

الكبر خُلُقٌ باطن :

اعلموا أن الكبر خلق باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا.

وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعى غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجبًا، ولا يتصور أن يكون متكبرًا، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حقر من دونه وازدراه[1] ، وصفة هذا المتكبر، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقارًا.

وآفة الكبر عظيمة ، وقد أخبر النبي ﷺ أنه : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[2] .

وإنما صار حجابًا دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين؛ لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم، فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

أحبتي في الله:

اعلموا أن من شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد

مسند المكثرين من الصحابة (٥٠٩٨، ٥٥٥٣)، كلهم من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(١)أي: استحقره وازدراه.

(٢)مسلم في الإيمان (١٣١)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

له وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤)، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ (المؤمنون: ٤٧)، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (إبراهيم: ١٠).

وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

تقسيم آفات الكبر :

اعلم: أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى : أن يكون الكبر مستقرًا في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الدرجة الثانية : أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصعر خده[1] للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ (الشعراء).

الدرجة الثالثة : أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً.

قال ابن عباس: « **يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى، قال الله تعالى:** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

---

(١)كناية عن الكبر والغرور ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ (لقمان: ١٨).

٢٨ ـ ذم العُجب

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « **بينما رجل يتبختر يمشي في بُرديه قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل**»[١] ، أي: يغوص في الأرض حين يخسف به، والجلجلة: الحركة مع الصوت فيها إلى يوم القيامة.

وقال ﷺ: « **إذا رأيتَ شُحًا مُطاعًا ، وهوىً مُتبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك...**»[٢].

وروى عن ابن مسعود أنه قال: الهلاك في شيئين: العجب والقنوط، وإنما جمع بينهما؛ لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط[٣] لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى.

قال مطرف رحمه الله : « **لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا، أحبُ إليَّ من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا**».

واعلم: أن العجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق.

فأما مع الخالق ، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها، فكأنه يمن على الله

(١) مسلم في اللباس والزينة (٣٨٩٥)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (١٠٤٤٩)، والدارمي في المقدمة (٤٣٨) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٤)، وأبو داود في الملاحم (٣٧٧٨)، وابن ماجة في الفتن (٤٠٠٤)، كلهم من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه .

(٣) هو اليائس.

تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها.

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها، والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقًا له عند الله إدلالاً، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به، والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده.

لفتات في العجب للمؤمنين والمؤمنات:

إن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميل بجماله، ولا غنى بغناه، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه، وكونه محلاً له نعمة أخرى.

فإن قلت : إن العمل حصل بقدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك فمن أين قدرتك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تعط المفتاح لا يمكنك العمل كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تعطى مفتاحها.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: « **قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله**»، قالوا: «**ولا أنت يا رسول الله؟**» قال:«**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[1] .

اعلموا : أن العجب يكون بالأسباب التي يقع بها الكبر، وقد سبق ذكرها

(١)سبق تخريجه في ص ٢٩ .

وعلاجها، ومن ذلك العجب بالنسب، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آباءه، وظن أنه ملحق بهم، فقد جهل، وإن اقتدى بهم، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم، بل الخوف والإزراء على النفس، وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة، لا بنفس النسب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣)، وقال النبي ﷺ:« **يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا**» [١] .

فإن قلت : إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته.

فالجواب : أن كل المسلمين يرجون الشفاعة، وقد يشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار، وقد يقوى الذنب فلا تنجى الشفاعة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك**»[٢] .

ومثل المنهمك في الذنوب اعتمادًا على رجاء الشفاعة، كمثل المريض المنهمك في الشهوات، اعتمادًا على طبيبه الحاذق المشفق، وذلك جهل، فإن اجتهاد الطبيب، ينفع بعض الأمراض لا كلها.

ويوضح هذا أن سادات الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ كانوا يخافون من

---

(١)البخاري في الوصايا (٢٥٤٨)، وتفسير القرآن (٤٣٩٨)، ومسلم في الإيمان (٣٠٥)، والنسائي في الوصايا (٣٥٨٦، ٣٥٨٧)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٩٤١٧)، والدارمي في الرقاق (٢٦١٦)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢)مسلم في الإمارة (٣٤١٢)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٩١٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الآخرة، فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم؟!

ومن الكبر: العجب بالرأي الخطأ، كما قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر: ٨).

وعلاج هذا أشد من علاج غيره، فإن هذا متى كان معجبًا برأيه لم يصغ إلى نصح ناصح، وكيف يترك ما يعتقده نجاة؟!

وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهمًا لرأيه أبدًا، لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة.

❋ ❋ ❋ ❋

المبحث التاسع
محبة اللـه والرضا بـه
٢٩ ـ المحبة غاية ومقام نبيل.. يُسعى إليه

إن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها: كالشوق، والأنس، والرضا، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها[١].

والأمة مجمعة على كون الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ (المائدة: ٥٤)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥)، وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال له: «**ما أعددت لها؟**» قال: «**يا رسول الله ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله**»، فقال رسول الله ﷺ:« **المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت**»[٢].

قال الحسن البصري رحمه الله : « **من عرف ربه أحبه، ومن أحب غير الله تعالى، لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته، فأما من أحب الرسول ﷺ فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأشقياء؛ لأن حب**

(١)وقد اعتمدت في جملة هذا الفصل علىٰ كتب سلطان المحبين العالم الرباني، شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ وعلىٰ رأسها كتابه، روض المحبين ونزهة المشتاقين بتصرف واختصار .

(٢)الترمذي في الزهد (٢٣٠٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، ولامحبوب في الحقيقة عند البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه».

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده :

ونوضح ذلك لأسباب :

إن الإنسان يحب نفسه وبقاءه، وكماله، ودوام وجوده، ويكره ضدَّ ذلك من الهلاك والعدم والنقصان، وهذه صلة كل حي لا يتصور أن ينفك عنها. وهذا يقتضي غاية المحبة لله عز وجل، فإن الإنسان إذا عرف ربه، عرف قطعًا أن وجوده ودوامه وكماله من الله، وأنه المخترع له، الموجد لذاته بعد أن كان عدمًا محضًا لولا فضل الله عليه بإيجاده. وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل، ولذلك قال الحسن البصري: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟

إن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه، وانتدب لنصرته وقمع أعداءه، وأعانه على جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محالة، وحين يتمكن الإنسان من المعرفة بحقه، يصل إلى أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط.

وأنواع إحسانه لا يحيط بها حصر ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨).

المحبة وأنواعها :

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة المحبة..

وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت

القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون.

وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها.

وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة.

لما كثر المدَّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي فتنوع المدعون في الشهود فقيل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١).

فتأخر الخلق كلهم وثبت اتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم،فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلموا إلى بيعة [١] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة: ١١١).

فلما عرفوا عظمة المشتري وفضل الثمن وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع

(١)انظر: السابق ٣/ ٩ .

عرفوا قدر السلعة وأن لها شأنًا فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار وقالوا والله لا نقيلك ولا نستقيلك فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل له مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معًا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (آل عمران).

إذا غرست شجرة المحبة في القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى لا يزال سعي المحب صاعدًا إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح .

وأخيرًا.. فثم كثيرون ضلوا طريقهم، وتاهت مذاهبهم، وخابوا وخسروا وزلوا وعسروا، وما اهتدوا إلى درب من دروب المحبة، فسبحان من صرف القلوب كما يشاء ولما يشاء بقدرته، واستخرج بها ما خلق له كل حي بحكمته، وصرفها أنواعًا وأقسامًا بين بريته وفصلها تفصيلاً فجعل كل محبوب لمحبه نصيبًا مخطئًا كان في محبته أو مصيبًا وجعله بحبه منعمًا أو قتيلاً فقسمها بين محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب النيران، ومحب الصلبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب النسوان، ومحب الصبيان، ومحب الأثمان، ومحب الإيمان، ومحب الألحان، ومحب القرآن، وفضل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله ﷺ على سائر المحبين تفضيلاً.

فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من

معاطبها، واتخذت إلى ربها سبيلاً، وكان لها دون غيره مأمولا وسولاً، وبها نالت الحياة الطيبة، وذاقت طعم الإيمان لمَّا رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً.

* * * *

٣٠ ـ بيان الأسباب المعنوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس في حبه وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

إن أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقواهم حبًا لله تعالى، فإن الآخرة معناها في القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه، فكلما ازداد حبك لله كلما ازدادت لذة لقاء الله تعالى.

ويقوى حب الله في القلوب بشيئين:

أولاً : قطع علائق الدنيا ، وإخراج حب غير الله من القلب فأحد أسباب ضعف حب الله تعالى هو قوة حب الدنيا.

ثانيًا : معرفة الله تعالى : فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة: إلا بعد انقطاع شواغل الدنيا عن القلب، فيكون الفكر الصافي، والذكر الدائم، والتشمير الدائم في الطلب.

فانظر إلى قدرة الله تعالى في خلقه، خلق السماء والأرض والإنسان والنحل... إلخ.

بيان محبة الله تعالى للعبد معناها ، وبيان علامات محبة العبد لله تعالى :

محبة الله تعالى:

إن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ (البقرة)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾

(الصف: ٤)، ونبه على أنه لا يعذب من يحبه؛ لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ (المائدة: ١٨)، وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران).

وفي الحديث الصحيح: «**ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»[1]، ومن علامة حب الله للقوم الابتلاء، لقول النبي ﷺ: « **إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**»[2].

محبة العبد لله تعالى:

إن المحبة يدعيها كل أحد، فما أجمل الدعوى وأعز المعنى، فامتحن نفسك وطالبها بالبرهان والدليل، ومن علامة حب العبد لله، أن يحب لقاءه في الجنة .

وهذا لا ينفي كراهيته للموت، فمن السلف من كره الموت ؛ لأنه رأى نفسه في بداية مقام محبة الله فكره الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى.

ومن علامات محبة الله تعالى: أن يؤثر ما أحبه الله على ما يحبه، فيواظب على طاعة اللـه.

ومنها اجتناب المعاصي، وهو يقوم على حق المحبة، فإن أتى معصية تاب وأسرع بالإنابة، فالعصيان لا ينافي أصل المحبة، وإنما ينقص كمالها، فالمعصية تخرج عن كمال محبة الله تعالى.

ومن علامات حب العبد لله أن يحب ذكره، وأن يحب القرآن الذي هو من كلامه،

---

(١)البخاري في الرقاق (٦٠٢١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢)الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة في الفتن (٤٠٢١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وأن يحب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ (آل عمران: ٣١).

ومن علامات حب الله حب الخلوة والاستئناس بمناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه.

ومن علامات حب الله أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنسم بالطاعة ولا يستثقلها.

ومنها أن يكون شفيقًا على جميع عباد الله رحيمًا بهم، شديدًا على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ (الفتح: ٢٩)، لا تأخذه في الله لومة لائم.

ومنها أن يكون في حبه خائفًا بين الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد العبادة.

الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها .. وهي عشرة :

الأول : أحدها قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني : التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة؛ ولهذا

كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب.

* * * *

٣١ـ الطمأنينة والسكينة ، وعظم منزلتهما

إن طمأنينة القلب هي طمأنينة الخائف إلى الرجاء والضجر إلى الحكم والمبتلى إلى المثوبة، وتكون الطمأنينة بذكر الله بكلامه وكتابه وبها يأمن الفزع والجازع،فإن الخائف إذا طال عليه الخوف واشتد به، وأراد الله عز وجل أن يريحه ويحمل عنه، أنزل عليه السكينة، فاستراح قلبه إلى الرجاء واطمأن به وسكن لهيب خوفه.

طمأنينة الضجر إلى الحكم [1] :

وأما طمأنينة الضجر إلى الحكم، فالمراد بها أن من أدركه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله ولا سيما من أقيم مقام التبليغ عن الله ومجاهدة أعداء الله وقطاع الطريق إليه فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه فلابد أن يدركه الضجر ويضعف صبره.

فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه أنزل عليه سكينته، فاطمأن إلى حكمه الديني وحكمه القدري، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته، فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أن دينه الحق وهو صراطه المستقيم وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم، وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان، وما لم يشأ لم يكن،فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان فإن المحذور والمخوف إن لم يقدر فلا سبيل إلى وقوعه وإن قدر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره فلا جزع حينئذ لا مما قدر ولا مما لم يقدر.

---

(١)انظر: مدارج السالكين ٢/ ٥١٦ .

نعم إن كان له في هذه النازلة حيلة، فلا ينبغي أن يضجر منها، وإن لم يكن فيها حيلة، فلا ينبغي أن يضجر منها فهذه طمأنينة الضجر إلى الحكم، وفي مثل هذا قال القائل:

أَمْرٌ قُضِي يا نفسُ فاصطبري لَـهُ   ولـكِ الأمـانُ مِـنَ الـذي لم يَقْـدِرِ

وَتَحَقَّقِـي أن الـمُقَـدَّرَ كائـنٌ   يجري عليـكِ حـذرتِ أم لم تَحْذَرِي

طمأنينة المبتلى إلى المثوبة:

وأما طمأنينة المبتلى إلى المثوبة، فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه، واطمأن بمشاهدة العوض، وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب وقد تقوى ملاحظة العوض، حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة، ولا تستبعد هذا فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يتلذذ به، وملاحظته لنفعه تغيبه عن تألمه بمذاقه، أو تخففه عنه والعمل المعول عليه، إنما هو على البصائر، والله أعلم .

السكينة [(١)] :

اعلموا أن منزلة السكينة من منازل المواهب لا من منازل المكاسب، إذ إنها هبة من الله ، وقد ذكر الله سبحانه السكينة في كتابه في ستة مواضع :

الأول : قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة:٢٤٨)، الثاني : قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٢٦)، الثالث : قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة: ٤٠)، الرابع : قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١)مدارج السالكين ٢/ ٥٠٢ .

لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ (الفتح)، الخامس : قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح)، السادس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٦).

ابن تيمية وكثرة قراءته لآيات السكينة :

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إذا اشتدت عليه الأمور، قرأ آيات السكينة، وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه تعجز العقول عن حملها من محاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة قال فلما اشتد علي الأمر قلت لأقاربي ومن حولي اقرؤوا آيات السكينة قال: ثم أقلع عني ذلك الحال وجلست وما بي شيئًا.

وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرد عليه، فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته، وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات.

نزول آيات السكينة :

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما،وكيوم حنين حين ولوا مدبرين من شدة بأس

الكفار لا يلوي أحد منهم على أحد، وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبك بضعف عمر ـ رضي الله عنه ـ عن حملها وهو عمر حتى ثبته الله بالصديق ـ رضي الله عنه ـ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة إلا التي في سورة البقرة**».

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (البقرة: ٢٤٨).

وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلد بطنه وهو يرتجز بكلمة عبدالله بن رواحة :

اللَّهمَّ لولا أنتَ ما اهْتَدَينا ... وَلاَ تصدَّقنَا ولا صَلَّيْنَا

فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبتِ الأقدامَ إِنْ لاقينَا

إن الألى قدْ بَغَوا علينا ... وإِنْ أرادُوا فتنةً أَبَيْنَا[1]

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: إني باعث نبيًا أميـًا، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه.

(١)البخاري في المغازي (٣٧٩٧)، وأحمد في مسند الكوفيين (١٧٩٣٦)، والدارمي في السير (٢٣٤٧).

٣٢ ـ الاستبشار والسرور بالله[(١)]

السرور .. اسم للاستبشار جامع وهو أصفى من الفرح؛ لأن الأفراح ربما شابتها الأحزان، ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدنيا في مواضع وورد السرور في موضعين من القرآن في حال الآخرة، السرور والمسرة مصدران لتقول: سره سرورًا ومسرة[(٢)] وكأن معنى سره أثر في أسارير وجهه فإنه تبرق منه أسارير الوجه، كما قال شاعر العرب:

وَإِذَا نَظَـرْتَ إِلـى أسـرَّةِ وَجْهِـهِ   بَرِقَـتْ كَبَرْقِ العـارضِ الـمُتَهَلُـلِ

والبشرى يراد بها أمران :

ـ أحدهما: بشارة المخبر .

ـ والثاني: سرور المخبر.

قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ (يونس:٦٤)، فسرت البشرى بهذا وهذا.

وفي حديث عبادة بن الصامت وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «**هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له**»[(٣)] .

وقال عبدالله بن عباس: « **بشرى الحياة الدنيا هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة**

(١)انظر: مدارج السالكين .

(٢)انظر: المعجم الوسيط مادة (س.ر.ر) ١/ ٤٢٦ .

(٣)الترمذي في الرؤيا (٢١٩٩)، وتفسير القرآن (٣٠٣١)، وابن ماجة في تعبير الرؤيا (٣٨٨٨)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢١٦٣٠)، ومسند القبائل (٢٦٢٣٨، ٢٦٢٤٧، ٢٦٢٥٠)، والدارمي في الرؤيا (٢٠٤٣).

بالبشرى من الله، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله، تُزف كما تزف العروس تُبَشَّر برضوان الله».

وقال الحسن : «**هي الجنة**» .

واختاره الزجاج والفراء ، وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن يجري له على ألسنة الناس، وكل ذلك صحيح، فالثناء من البشرى، والرؤيا الصالحة من البشرى، وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى، والجنة من أعظم البشرى.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (البقرة: ٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (فُصِّلَتْ: ٣٠).

قيل : وسميت بذلك ؛ لأنها تؤثر في بشرة الوجه ، ولذلك كانت نوعين :

- بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة .
- وبشرى محزنة تؤثر فيه بسورًا وعبوسًا.

❊ ❊ ❊ ❊

المبحث العاشر

الصبر

٣٣ ـ ذخيرة الصبر

معنى الصبر لغة:

أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس[١] فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود،وشق الثياب ونحوهما .

ويقال : صبر يصبر صبرًا، وصبر نفسه قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ (الكهف: ٢٨).

وأما حقيقته فهو : خُلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

وسئل عنه الجنيد بن محمد فقال:« **تجرع المرارة من غير تعبس**».

وقال ذو النون : «**هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة**».

وقيل : « **هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى**».

وقال أبو عثمان : « **الصبار هو الذي عود نفسه الهجوم على المكاره** ».

وقيل :«**الصبر المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام من العافية**».

ومعنى هذا أن لله على العبد عبودية في عافيته وفي بلائه، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر.

---

(١)انظر: المعجم الوسيط مادة (ص.ب.ر) ١/ ٥٠٥ .

وقال عمرو بن عثمان المكي : « **الصبر هو الثبات مع الله، وتلقي بلاءه بالرحب والدعة**»، ومعنى هذا أنه يتلقى البلاء بصدر واسع لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى.

وقال الخواص : « **الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة** ».

وقال غيره : « **الصبر ترك الشكوى**».

وقالوا : « **الصبر هو الاستعانة بالله**».

وقال أبو علي: « **الصبر كاسمه** ».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « **الصبر مطية لا تكبو** ».

وقال أبو محمد الجريري : « **الصبر: أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما** ».

قلت : وهذا غير مقدور ولا مأمور، فقد ركب الله الطباع على التفريق بين الحالتين، وإنما المقدور حبس النفس عن الجزع لا استواء الحالتين عند العبد، وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر.

كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور: « **إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي** ».

ولا يناقض هذا قوله ﷺ: « **وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»[1].

فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر وأما قبله فالعافية أوسع له.

---

(١) البخاري في الزكاة (١٣٧٦)، والرقاق (٥٩٨٩)، ومسلم في الزكاة (١٧٤٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٤١)، وأبو داود في الزكاة (١٤٠١)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (١٠٦٦٩، ١١٤٥٦)، ومالك في الجامع (١٥٨٥)، والدارمي في الزكاة (١٥٨٩)، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وقال أبو علي الدقاق : « **حد الصبر أن لا يعترض على التقدير** ».

فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى لا ينافي الصبر ، قال الله تعالى في قصة أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ (ص:٤٤)، من قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ (الأنبياء:٨٣).

قلت : فسر اللفظة بلازمها، وأما قوله:«**على غير وجه الشكوى**».

فالشكوى نوعان:

النوع الأول : الشكوى إلى الله، فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦). مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ١٨)، وقال أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ (الأنبياء:٨٣)، مع وصف الله له بالصبر، وقال سيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه: « **اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي** ...» الخو وقال موسى صلوات الله وسلامه عليه: «**اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك اتكالنا ولا حول ولا قوة إلا بك**».

والنوع الثاني : شكوى المبتلى بلسان الحال أو المقال فهذه لا تجامع الصبر، بل تضاده وتبطله.

من فضائل الصبر [1] :

اعلم ـ أخي المؤمن ـ أن الله سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو، وصارمًا لا ينبو، وجندًا لا يهزم، وحصنًا حصينًا لا يهدم ولايثلم، فهو والنصر أخوان شقيقان، فالنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر.

وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد ، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد، ولقد ضمن الوفي الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم

(١)انظر: عدة الصابرين لابن القيم، ص٣ .

بغير حساب وأخبرهم أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾ (الأنفال).

فظفر الصابرون بهذه المعية بخيري الدنيا والآخرة، وفازوا بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ (السجدة).

وأخبر أن الصبر خير لأهله ،فقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ (النحل).

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ (آل عمران). وأخبرعن نبيه يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ أن صبره وتقواه وصَّلاه إلى محل العز والتمكين فقال: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾ (يوسف).

وعلَّق الفلاح بالصبر والتقوى فعقل ذلك عنه المؤمنون فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ (آل عمران). وأخبر عن محبته لأهله وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين ، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾ (آل عمران).

ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ

عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (البقرة).

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (البقرة).

وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ (المؤمنون).

وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا أولو الصبر المؤمنون فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (القصص).

وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتي هي أحسن تجعل المسىء كأنه ولي حميم فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فُصِّلَتْ). وأن هذه الخصلة لا يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

وأخبر سبحانه مؤكدا بالقسم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ (العصر).

وقسَّم خلقه قسمين : أصحاب ميمنة، وأصحاب مشأمة، وخص أهل الميمنة أهل التواصى بالصبر والمرحمة ، وخص بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزًا لهم بهذا الحظ الموفور فقال في أربع آيات من كتابه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الشورى).

وعلَّق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر، وذلك على من يسره الله عليه يسير

فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (هود).

وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تجارة أربابها لا تبور فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ (الشورى).

وأمر رسوله ﷺ بالصبر لحكمة، وأخبر أن صبره إنما هو به وبذلك جميع المصائب تهون فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور:٤٨)، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (النحل).

* * * *

٣٤ ـ أحاديث في الترغيب في الصبر
سيما لمن ابتلي في نفسه أو ماله ، وفضل البلاء والمرض والحمى

أحبتي في الله ..

تالله ما أجلها نعمة، وما أعظمها عافية أن يتفيأ العبد ظلال شجرتي الصبر والشكر، ولله قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما باح بالحق، وصدح بالصدق وقال : « **تالله ما أبالي أي المطيتين أركب مطية الصبر أو مطية الشكر**»، وهذه سياحة عاطرة في هدي النبي محمد ﷺ في الصبر ترغيبًا وتحبيبًا.

فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : « **الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : « **أربع لا يصبن إلا بعجب؛ الصبر وهو أول العبادة، والتواضع، وذكر الله، وقلة الشيء** »[(٣)] .

وروى الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه ،قال : قال رسول الله ﷺ : « **الزهادة في**

---

(١)مسلم في الطهارة (٣٢٨)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢١٨٢٨، ٢١٨٣٤)، والدارمي في الطهارة (٦٥١).

(٢)سبق تخريجه في ص ١٢٦ .

(٣)رواه الطبراني في الكبير (٧٤٠)، والحاكم، كلاهما من رواية العوام بن جويرية، وقال الحاكم : صحيح الإسناد . وتقدم في الصمت.

الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك مما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك»(١) .

وعن علقمة قال: قال عبد الله: « **الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان**»(٢) .

وعن صهيب الرومي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : « **عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(٣) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: « **إن الله عز وجل قال: يا عيسى، إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم، قال: يا رب كيف يكون هذا؟ قال:(أعطيهم من حلمي وعلمي** »(٤) .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « **من أعطى فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فاستغفر، وظلم فغفر**»، ثم سكت، فقالوا: يا رسول الله، ماله؟ قال: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ** ﴿٨٢﴾﴾ (الأنعام: ٨٢)(٥) .

---

(١)الترمذي في الزهد (٢٢٦٢)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجة في الزهد (٤٠٩٠).

(٢)رواه الطبراني في الكبير (٨٤٦٦)، ورواته رواة الصحيح، وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم، وعن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «**الصبر معول المسلم**» ذكره رزين العبدري، ولم أره .

(٣)مسلم في الزهد والرقائق (٥٣١٨).

(٤)الحاكم في الجنائز (١٢٨٩)، وقال : صحيح علىٰ شرط البخاري .

(٥)رواه الطبراني في الكبير (٦٤٨٢)، عن أبي داود عن سخبرة .

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى تهيج**»، وفي رواية: «**حتى يأتيه أجله ، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها، لا يفيئها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الرياح تفيئه، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد** »[٢].

وعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ما ابتلى الله عبدًا ببلاء، وهو على طريقة يكرهها، إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطهورًا ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عز وجل، أو يدعو غير الله في كشفه**»[٣].

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قلت: « **يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟** »، قال: « **الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة** »[٤].

---

(١)مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٥٠٢٥)،وأحمد في مسند المكيين (١٥٢٠٩).

(٢)مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٥٠٢٤)، والترمذي في الأمثال (٢٧٩٢)، وقال حديث حسن صحيح، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٤٨٠)، « الأرز » بفتح الهمزة وتضم وإسكان الراء بعدها زاي: هي شجرة الصنوبر، وقيل شجرة الصنوبر الذكر خاصة، وقيل : شجرة العرعر، والأول أشهر.

(٣)رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات (٢٠٢) باب ما ابتلىٰ الله عبد ابتلاء ١/ ٢٠٣، وأم عبدالله ابنة أبي ذئاب لا أعرفها .

(٤)الترمذي في الزهد (٢٣٢٢)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة في الفتن (٤٠١٣)، وأحمد

ولابن حبان في صحيحه من رواية العلاء بن المسيب، عن أبيه عن سعد قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: « **الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: دخلتُ على النبي ﷺ وهو محموم فوضعتُ يدي فوق القطيفة فوجدتُ حرارة الحمى، فقلتُ: «**ما أشدُ حماك يا رسول الله؟**»، قال: «**إنا كذلك معشر الأنبياء يُضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر**»، قلتُ: «**يا رسول الله، فأي الناس أشدُ بلاءً؟**»، قال: «**الأنبياء**»، قلتُ: «**ثم من؟**» قال: «**ثم الصالحون إن كان ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة فيجوبها ويلبسها، وإن كان أحدهم لـيُبتَلى بالقمل حتى يقتله القمل، وكان ذلك أحب إليهم من العطاء**»[(٢)].

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **يود أهل العافية يوم القيامة حتى يعطى أهل البلاء الثوابَ لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض**»[(٣)].

في مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٤١٢، ١٤٧٣، ١٥٢١)، والدارمي في الرقاق (٢٦٦٤).

(١) الترمذي في الزهد (٢٣٢٢)، وابن ماجة في الفتن (٤٠١٣)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٤٠٠، ١٤١٢، ١٤٧٣، ١٥٢١)، والدارمي في الرقاق (٢٦٦٤)، كلهم من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) أحمد في باقي مسند المكثرين (١١٤٥٨)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات، حديث رقم (١)، والحاكم في كتاب الرقاق، باب يضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر (٧٩٥٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

(٣) الترمذي في الزهد (٢٣٢٦)، وقال عنه: هذا حديث غريب، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال : « **يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب، ويؤتى بالمتصدق فينصب للحساب، ثم يؤتى بأهل البلاء ولا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، فيصب عليهم الأجر صبًا، حتى إن أهل العافية ليتمنون في الموقف أن أجسادهم قُرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله لهم** »(١) .

ورُوي عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : « **إذا أحب الله عبدًا أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبًا وثجه عليه ثجًا. فإذا دعا العبد قال: يارباه! قال الله: لبيك يا عبدي لا تسألني شيئًا إلا أعطيتك؛ إما أن أعجله لك، وإما أن أدخره لك** »(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:\ « **من يرد الله به خيرًا يصب منه** »(٣) .

وعن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا أحب الله قومًا ابتلاهم؛ فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع** »(٤) .

---

(١٩٩) (جـ١/ ٢٠٠)، من رواية عبدالرحمن بن مغراء وبقية رجاله ثقات، والمعجم الصغير للطبراني (٢٤٢)، باب يود أهل العافية (جـ١/ ٢٤٦)، وشُعب الإيمان للبيهقي (٩٥٦٩)، باب فضل فيما يقول العاطس (جـ٢٠/ ٢٨٧).

(١)رواه الطبراني في الكبير (١٢٦٥٨)، من رواية مجاعة بن الزبير عن قتادة ، عن جابر بن زيد، وقد وثق .

(٢)ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢١٨) (جـ١/ ٢١٩)، وضعيف الترغيب والترهيب (١٩٨٦) حديث ضعيف.

(٣)البخاري في المرض (٥٢١٣)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٦٩٣٧)، ومالك في الجامع (١٤٧٧) ، و يصب منه : أي يوجه إليه مصيبة ويصيبه ببلاء .

(٤)رواه أحمد ورواته ثقات، ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ ، واختلف في سماعه منه.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه،قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل؛ فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها** »[(٢)] .

وروي عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه، قال سمعت النبي ﷺ يقول : «**ماأصاب رجلاً من المسلمين نكبة فما فوقها حتى ذكر الشوكة إلا لإحدى خصلتين؛ إما ليغفر الله له من الذنوب ذنبًا لم يكن ليغفره له إلا بمثل ذلك، أو يبلغ به من الكرامة كرامةً لم يكن ليبلغها إلا بمثل ذلك**»[(٣)] .

وعن محمد بن خالد، عن أبيه، عن جده وكانت له صحبة من رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده، أو في ماله، أو في ولده**»، قال أبو داود: زاد ابن نفيل: «**ثم صبره على ذلك ثم اتفقا حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى**»[(٤)] .

وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ: « **إن الله عز وجل**

(١)سبق تخريجه في ص ١١٦ .

(٢)رواه أبو يعلىٰ، وابن حبان في صحيحه من طريقه، وغيرهما، وصحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠٨) حديث حسن صحيح.

(٣)ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات ، حديث (٢٤٩) (جـ١/ ٢٥٠)، وضعيف الترغيب والترهيب (١٩٨٧)، حديث ضعيف.

(٤)أبو داود في الجنائز (٢٦٨٦)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢١٣٠٦)، وأبو يعلىٰ والطبراني في الكبير (١٨٢٤٩)، والأوسط (١١٣٥)، ومحمد بن خالد لم يرو عنه أبي المليح الرقمي ولم يرو عن خالد إلا ابنه محمد، والله أعلم .

ليقول للملائكة: انطلقوا إلى عبدي فصبوا عليه البلاء صبا، فيأتونه، فيصبون عليه البلاء، فيحمد الله، فيرجعون، فيقولون: يا ربنا، صببنا عليه البلاء صبًا كما أمرتنا، فيقول: ارجعوا فإني أحب أن أسمع صوته»[(١)] .

وروي فيه أيضًا عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء، كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنه ما يخرج كالذهب الإبريز، فذاك الذي حماه الله عز وجل من الشبهات، ومنه ما يخرج دون ذلك، فذلك الذي يشك بعض الشك، ومنهم ما يخرج كالذهب الأسود فذاك الذي افتتن»**[(٢)] .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «**المصيبة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه** »[(٣)] .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال : « **ما يصيب المؤمن من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»**[(٤)] .

وعن أبي بردة رضي الله عنه، قال: كنت عند معاوية، وطبيب يعالج قرحة في ظهره وهو يتضور، فقلت له: لو بعض شبابنا فعل هذا لعبنا عليه! فقال: ما يسرني أني لا أجده، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ما من مسلم يصيبه أذى في جسده إلا كان كفارة لخطاياه»**[(٥)] .

---

(١)الطبراني في الكبير (٧٥٩٧).

(٢)الطبراني في الكبير (٧٥٩٨).

(٣)الطبراني في الأوسط (٤٧٧٨).

(٤)البخاري في المرضى (٥٢١٠)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٦٨٤، ٨٠٧٠، ١٠٧١٤).

(٥)ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٥٧).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها**»(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة** »(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « **من أصيب بمصيبة في ماله، أو في جسده فكتمها فلم يشكها إلى الناس، كان حقًا على الله أن يغفر له** »(٣) .

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ شجرة فهزها حتى تساقط ورقها ما شاء الله أن يتساقط، ثم قال: « **للمصيبات والأوجاع أسرع في ذنوب ابن آدم مني في هذه الشجرة**»(٤) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **ما من شيء يصيب المؤمن من نصب، ولا حزن، ولا وصب حتى الهم يهمه. إلا يكفر الله به عنه سيئاته**»(٥) .

وروي عن بشير بن عبدالله بن أبي أيوب الأنصاري، عن أبيه عن جده، قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار فأكب عليه فسأله، فقال: يا نبي الله، ما غمضت منذ سبعٍ، ولا أحد يحضرني.. فقال رسول الله ﷺ: «**أي أخي اصبر، أي أخي اصبر**

(١)البخاري في المرضىٰ (٥٢٠٩)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٤٦٦٧)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢٣٤٣٤، ٢٣٦٨٤، ٢٣٧٣٨).

(٢)الترمذي في الزهد (٢٣٢٣)، وقال : حديث حسن صحيح.

(٣)الطبراني في الكبير (١١٢٧٥)، ولا بأس بإسناده .

(٤)ضعيف الترغيب والترهيب (١٩٩٢)، حديث ضعيف.

(٥)ابن أبي الدنيا ، والترمذي في الجنائز (٨٨٩)، وقال: حديث حسن.

حتى تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا** »[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **وصب المؤمن كفارة لخطاياه** » [(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت:قال رسول الله ﷺ: « **إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله عز وجل بالحزن ليكفرها عنه**»[(٣)].

وعن عائشة أيضًا رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: « **إذا اشتكى العبد المؤمن أخلصه الله من الذنوب كما يخلص الكير خبث الحديد**»[(٤)].

وعن عطاء بن رباح قال : قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: «**إني أُصرع وإني أتكشف، فادع الله لي. قال:**«**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك** ». فقالت: «**أصبر**»، فقالت: «**إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف**». فدعا لها[(٥)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إذا مرض العبد أو سافر**

---

(١)ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات، حديث (٣٤) (جـ١/ ٣٥)، وضعيف الترغيب والترهيب (١٩٩٣) حديث ضعيف جدًا.

(٢)رواه ابن أبي الدنيا، والحاكم وقال : صحيح الإسناد، وصحيح الترغيب والترهيب، حديث (٣٤١٦) (جـ٣/ ١٨٣).

(٣)أحمد في باقي مسند الأنصار (٢٤٠٧٧)، ورواته ثقات إلا ليث ابن أبي سليم.

(٤)الطبراني في المعجم الأوسط ، حديث (٥٥١٠)، (جـ١٢/ ٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، وصحيح الترغيب والترهيب ، حديث (٣٤١٧)، (جـ ٣/ ١٨٤).

(٥)البخاري في المرضىٰ (٥٢٢٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٤٦٧٣)، وأحمد في مسند بني هاشم (٣٠٧٠).

كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحًا»[١] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال : « **ما من أحد من المسلمين يُصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة الذين يحفظونه قال: اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة مثل ما كان يعمل من الخير ما دام محبوسًا في وثاقي»**[٢] .

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١)البخاري في الجهاد والسير (٢٧٧٤)، وأحمد في مسند الكوفيين (١٨٨٤٨).

(٢)أحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٦٥٧٤)، والدارمي في الرقاق (٢٦٥١)، واللفظ له، والحاكم، وقال : صحيح على شرطهما.

خاتمة في:
الترغيب والترهيب
٣٥ـ لطيفة في أدنى أهل الجنة منزلة

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن موسى عليه السلام سأل ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدْخِل أهل الجنة الجنة، فيُقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين،ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر**»[(١)] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة وله شجرة ذات ظل فقال: أي رب، قدِّمني إلى هذه الشجرة أكون في ظلها**».. فذكر الحديث في دخول الجنة وتمنيته إلى أن قال في آخره: «**فإذا انقطعت به الأماني قال الله: هو لك وعشرة أمثاله. قال: ثم يدخل بيته فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين فيقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك، قال: فيقول:ما أعطي أحد مثل ما أعطيت**»[(٢)] .

وروى أحمد عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١)مسلم في الإيمان (٢٧٦).

(٢)مسلم في الإيمان (٢٧٥)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (١٠٧٨٤).

«آخر رجلان يخرجان من النار فيقول الله عز وجل لأحدهما: يا ابن آدم ما أعددت لهذا اليوم، هل عملت خيرًا قط؟».. فذكر الحديث بطوله إلى أن قال في آخره: **«فيقول الله عز وجل: سل وتمنى، فيسأل ويتمنى مقدار ثلاثة أيام من أيام الدنيا، ويلقنه الله ما لا علم له به فيسأل ويتمنى، فإذا فرغ قال: لك ما سألت»**.

قال أبو سعيد: «**ومثله معه**». قال أبو هريرة: «**وعشرة أمثاله معه**». فقال أحدهما لصاحبه: حدث بما سمعت، وأحدث بما سمعت. ورواته محتج بهم في الصحيح إلا على بن زيد، وهو في البخاري نحوه، إلا أن أبا هريرة قال: ومثله، وقال أبو سعيد: وعشرة أمثاله، على العكس وتقدم.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه،عن النبي ﷺ قال : «**يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيامًا أربعين سنة، شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء**» فذكر الحديث إلى أن قال :

«ثم يقول: يعنى الرب تبارك وتعالى: ارفعوا رؤوسكم. فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم مَنْ يُعْطَى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك، ومنهم من يُعطى نُورًا مثل النخلة بيمينه، ومنهم مَنْ يُعْطَى نُورًا أصغر من ذلك، حتى يكون رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويَفِيء مرة، فإذا أضاء قَدَّمَ قَدَمَهُ فَمَشَى، وإذا طُفِئ قام، قال: «والرَّبُّ عز وجل أمامهم حتى يَمُرَّ في النَّارِ فَيَبْقَى أَثَرُهُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضُ مَزِلَّةٍ»، قال: «**ويقولُ: مُرُّوا، فيمرون على قدر نورهم، منهم من يمر كطرفة العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالسحاب، ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الفرس، ومنهم من يمر كشد الرجل،**

حتى يمر الذي أُعطي نوره على إبهام قدميه يحبو على وجهه ويديه ورجليه، تخر رجل وتعلق رجل، ويصيب جوانبه النار، فلا يزال كذلك حتى يخلص، فإذا خلص وقف عليها ثم قال: الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدًا أن نجاني منها بعد إذ رأيتها.

قال: فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة، فيغتسل، فيعود إلى ريح أهل الجنة وألوانهم، فيرى ما في الجنة من خلال الباب، فيقول: رب أدخلنى الجنة.

فيقول الله له: أتسأل الجنة وقد نجيتك من النار؟

فيقول: رب اجعل بيني وبينها حجابًا لا أسمع حسيسها.

قال: فيدخل الجنة .

قال: فيرى أو يُرفع إليه منزل أمام ذلك، كأنما هو فيه إليه حلم.

فيقول: رب أعطنى ذلك المنزل.

فيقول له: فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره؟

فيقول: لا، وعزتك لا أسألك غيره، وأي منزلة أحسن منه؟

قال: ويرى أو يُرفع له أمام ذلك منزل آخر كأنما هو فيه إليه حلم.

فيقول:أعطني ذلك المنزل.

فيقول الله جل جلاله : فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره؟

قال: لا، وعزتك لا أسأل غيره، وأي منزل أحسن منه؟

قال : فيُعطاه فينزله، ثم يسكت.

فيقول الله عز وجل: مالك لا تسأل؟

فيقول: رب لقد سألتك حتى استحييتك، وأقسمت لك حتى استحييتك.

فيقول الله تعالى : ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافه؟

فيقول: أتستهزأ بي ، وأنت رب العزة؟

فيضحك الرب عز وجل من قوله.

قال : فرأيت عبد الله بن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك.

فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن ، قد سمعتُك تُحَدِّثُ هذا الحديثَ مِرارًا، كُلَّما بلغتَ هذا المكان ضَحِكْتَ؟

فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُحَدِّثُ هذا الحديث مِرَارًا، كُلَّما بلغَ هذا المكان من الحديث ضحكَ حتى تبدو أضرَاسُهُ.

قال: فيقول الرب عز وجل : ولكنى على ذلك قادر، سل.

فيقول: ألحقني بالناس. فيقول: ألحق بالناس. فينطلق يرمل في الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفِع له قصر من درة فيخر ساجدًا فيُقال له: ارفع رأسك ما لك؟

فيقول: رأيت ربى أو تراءَى لى ربي.

فيُقال له: إنما هو منزل من منازلك.

قال: ثم يلقى رجلاً فيتهيأ للسجود له فيقال له: مه، مالك ؟.

فيقول: رأيت أنك ملك من الملائكة؟

فيقول: إنما أنا خازن من خزانك ، عبد من عبيدك؛ تحت يدي ألف قهرمان على مثل ما أنا عليه.

قال: فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر.

قال: وهو في درة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاقها ومفاتيحها منها، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة، كل جوهرة تفضي إلى جوهرة على غير لون الأخرى، في كل جوهرة سرر وأزواج ووصائف، أدناهم حوراء عيناء عليها سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفًا عمّا كان قبل ذلك.

فيقولُ لها: والله لقد ازدَدْتِ في عيني سبعين ضعفًا.

وتقولُ له: وأنت والله لقد ازددتَ في عيني سبعين ضعفًا.

فيقال له: أشرف، قال: فيشرف، فيقال له: ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصره.

قال: فقال عمر: ألا تسمع ما يحدثنا ابن أم عبد - يا كعب - عن أدنى أهل الجنة منزلا فكيف أعلاهم؟!

فقال كعب: يا أمير المؤمنين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، إن الله عز وجل جعل دارًا فجعل فيها ما شاء من الأزواج والثمرات والأشربة، ثم أطبقها، ثم لم يرها أحد من خلقه ولا جبريل ولا غيره من الملائكة، ثم قرأ كعب: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة).

قال: وخلق دون ذلك جنتين وزينهما بما شاء وأراهما من شاء من خلقه. ثم قال من كان كتابه في عليين نزل تلك الدار التي لم يرها أحد حتى إن الرجل من أهل عليين ليخرج فيسير في ملكه فلا تبقى خيمة من خيم الجنة إلا دخلها من ضوء وجهه، فيستبشرون بريحه فيقولون: واهًا لهذا الريح! هذا رجل من أهل عليين قد خرج يسير في ملكه.

فقال: ويحك يا كعب إن هذه القلوب قد استرسلت واقبضها.

فقال كعب: والذي نفسي بيده إن لجهنم يوم القيامة لزفرة ما من ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا يَخِرُّ لركبتيه، حتى إن إبراهيم خليل الله ليقول: رب نفسي نفسي. حتى لو كان لك عمل سبعين نبيا إلى عملك لظننت أنك لا تنجو»[١].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأسفل أهل الجنة درجة؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**رجل يدخل الجنة من باب الجنة فيتلقاه غلمانه فيقولون: مرحبًا بسيدنا، قد آن لك أن تزورنا. قال: فتمد له الزرابي أربعين سنة، ثم ينظر عن يمينه وشماله فيرى الجنان، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: لك.**

حتى إذا انتهى رفعت له ياقوتة حمراء وزبرجدة خضراء لها سبعون شعبًا في كل شعب سبعون غرفة، في كل غرفة سبعون بابًا، فيقولون: اقرأ وارقه، فيرقى حتى إذا انتهوا إلى سرير ملكه اتكأ عليه، سعته ميل في ميل، له فيه فصول، فيسعى إليه بسبعين صحفة من ذهب ليس فيها صحفة من لون أختها، يجد لذة آخرها كما يجد لذة أولها، ثم يسعى إليه بألوان الأشربة، فيشرب منها ما اشتهى.

ثم يقول الغلمان: اتركوه وأزواجه، فينطلق الغلمان، ثم ينظر فإذا حوراء من الحور العين جالسة على سرير ملكها عليها سبعون حلة ليس منها حلة من لون صاحبتها، فيرى مخ ساقها من وراء اللحم والدم والعظم، والكسوة فوق ذلك، فينظر إليها فيقول: من أنت؟

فتقول: أنا من الحور العين من اللاتي خبئن لك، فينظر إليها أربعين سنة لا يصرف

---

(١) الطبراني في الكبير (٩٦٤٧، ٩٦٤٨)، الباب ٢/ ٢١١ ، عن ابن مسعود مرفوعًا، وأحد طرق الطبراني صحيح واللفظ له.

بصره عنها.

ثم يرفع بصره إلى الغرفة فوقه فإذا أخرى أجمل منها فتقول:

أما آن لك أن يكون لنا فيك نصيب؟

فيرتقي إليها أربعين سنة لا يصرف بصره عنها، ثم إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلى لهم الرب عز وجل، فينظرون إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى فيقول:

يا أهل الجنة هللوني، فيتجاوبون بتهليل الرحمن.

ثم يقول: يا داود قم فمجدني كما كنت تمجدني في الدنيا.

فيمجد داود عليه السلام ربه عز وجل »[1]

وروى البيهقي من حديث يحيى بن أبي طالب: حدثنا عبد الوهاب: أنبأنا سعيد ابن أبي عروبة، عن قتادة عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمر قال: « **إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه**»، قال: وتلا هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ (الإنسان).

*** * * ***

(١)ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، رقم الحديث (٣٢٦)، باب: ألا أخبركم بأسفل أهل الجنة، جـ١/ ٢٤٨، وفي إسناده من لا أعرفه الآن.

٣٦ ـ الترغيب في الجنة ونعيمها

عن أبي بكرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : « **من قتل نفسًا معاهدة بغير حقها لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام** »[١].

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «**ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم**»[٢].

في صفة دخول أهل الجنة الجنة وغير ذلك :

عن علي رضي الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ (مريم) إلى آخرها..قال: قلت يا رسول الله ماالوفد إلا ركب؟ قال النبي ﷺ :

«**والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رحال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مثل مد البصر، فينتهون إلى باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداهما جرت في وجوههم نضرة النعيم، وإذا توضؤوا من الأخرى لم تشعث شعورهم أبدًا، فيضربون الحلقة فلو سمعت طنين الحلقة يا علي!**

فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة فتبعث قيمها ليفتح له

---

(١)رواه الطبراني، ومستدرك الحاكم في الإيمان (١٣٣)، حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢)رواه الطبراني في الأوسط (٥٨٢٥) من رواية جابر الجعفي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وتقدم غير ما حديث فيه ذكر رائحة الجنة في أماكن متفرقة من هذا الكتاب لم نعدها.

الباب، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر ساجدًا مما يرى من النور والبهاء، فيقول: أنا قيمك الذي وكلت بأمرك، فيتبعه فيقفو أثره فيأتي زوجته، فتستخفها العجلة فتخرج من الخيمة، فتعانقه وتقول: أنت حبي وأنا حبك، وأنا الراضية فلاأسخط أبدًا، وأنا الناعمة فلا أبؤس أبدًا، وأنا الخالدة فلا أظعن أبدًا.

فيدخل بيته من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع مبنيًا على جندل اللؤلؤ والياقوت، طرائق حمر، وطرائق خضر، وطرائق صفر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها، فيأتي الأريكة فإذا عليها سرير على السرير سبعون فراشًا عليها سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقيها من باطن الحلل، يقضي جماعهن في مقدار ليلة..

تجري من تحتهم الأنهار مطردة، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصرها الرجال بأقدامهم، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من بطون الماشية.

فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها، فيأكلون من جنوبها من أي الألوان شاؤوا، ثم تطير فتذهب، وفيها ثمار متدلية إذا اشتهوا انشعب الغصن إليهم فيأكلون من أي الثمار اشتهوا، إن شاء قائمًا، وإن شاء متكئًا، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الرحمن: ٥٤)، وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ»[(١)].

قال: «يساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما كأنما أمروا بها، فشربوا منها، فأذهبت ما في بطونهم من قذر وأذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تتغير أبشارهم، ولا تغير بعدها

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، الحديث رقم (٦).

أبدًا، ولم تشعث أشعارهم كأنما دهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى خزنة الجنة فقالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ (الزُمَر: ٧٣)، ثم تلقاهم أو تلقتهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحميم يقدم من غيبته، يقولون: أبشر بما أعد الله لك من الكرامة، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين؛ فيقولون: قد جاء فلان ـ باسمه الذي يدعى به في الدنيا ـ فيقولون: أنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته وهو ذا بأثري.

فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسقفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله، نظر إلى أي شيء أساس بنيانه، فإذا جندل اللؤلؤ وفوقه صرح أخضر وأصفر وأحمر ومن كل لون، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه، فإذا هو مثل البرق، فلولا أن الله عز وجل قد قدر له أن لا يذهب بصره لذهب، ثم طأطأ رأسه فنظر إلى أزواجه: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ (الغاشية)، فنظر إلى تلك النعمة، ثم اتكؤوا وقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (الأعراف:٤٣)، ثم ينادي مناد: تحيون فلا تموتون أبدًا، وتقيمون فلا تظعنون أبدًا، وتصحون ـ أراه قال: ـ فلا تمرضون أبدًا»[1] .

وعن خالد بن عمير قال: «خطبنا عتبة بن غزوان رضي الله عنه، فحمد الله ثم أثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها،

(١) الجندل: الحجر. «الآسن» بمد الهمزة وكسر السين المهملة: هو المتغير. «الحميم»: القريب، «الأكواب»: جمع كوب وهو كوز لا عروة له، وقيل: لا خرطوم له، فإذا كان له خرطوم فهو أبريق، «النمارق»: الوسائد، وأحدهما نمرقة، «الزرابي»: البسط الفاخرة، واحدهما زربية، ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، الحديث رقم (٧).

فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا، ووالله لتملأن أفعجبتم، ولقد ذكر لنا أن مابين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام»[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : « **والذي نفس محمد بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو هجر ومكة»**[٢] .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : « **ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف - لا يدري أبو حازم أيهما قال - متماسكون آخذ بعضهم بعضًا لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»**[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون، ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء»**[٤] .

(١)مسلم في الزهد والرقائق (٥٢٦٥)، وأحمد في مسند الشاميين (١٦٩١٧).

(٢)البخاري في تفسير القرآن (٤٣٤٣)، ومسلم في الإيمان (٢٨٧)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٣٥٨)،وأحمد في باقي مسند المكثرين (٩٢٥٠)، وابن حبان مختصرًا إلا أنه قال:«لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرىٰ».

(٣)البخاري في الرقاق (٦٠٦١، ٦٠٧٠)، ومسلم في الإيمان (٣٢٢).

(٤)البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٠٨٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥٠٦٣)، وابن ماجة في الزهد (٤٣٢٤)، والدارمي في الرقاق (٢٧٠٢)، وفي رواية لمسلم : أن النبي ﷺ قال: «إن

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا**»(١).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا مكحلين أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين**»(٢).

ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة وقال: غريب، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة جرد مرد كحل لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «**يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا جعادا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم ستون ذراعا في عرض سبع أذرع**»(٣).

أول زمرة يدخلون الجنة من أمتىٰ علىٰ صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم علىٰ أشد نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل..» فذكر الحديث، وقال: قال ابن أبي شيبة: «علىٰ خلق رجل»، يعني بضم الخاء، وقال أبو كريب: «علىٰ خلق» يعني بفتحها، «الألوة» بفتح الهمزة وضمها وبضم اللام وتشديد الواو وفتحها : من أسماء العود الذي يتبخر به. قال الأصمعي: أراها كلمة فارسية عربت .

(١)البخاري في بدء الخلق (٣٠٠٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥٠٦٥)، والترمذي في صفة الجنة (٢٤٦٠).

(٢)الترمذي في صفة الجنة (٢٤٦٨)، وقال : حديث حسن غريب، وأحمد في مسند الأنصار (٢١٠٩٠).

(٣)أحمد في باقي مسند المكثرين (٧٥٩٢)، وابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي، كلهم من رواية علىٰ

وعن المقدام رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «**ما من أحد يموت سقطًا ولا هرمًا، وإنما الناس فيما بين ذلك إلا بُعِثَ ابن ثلاث وثلاثين سنة، فإن كان من أهل الجنة كان على مسحة آدم، وصورة يوسف، وقلب أيوب. ومن كان من أهل النار عظموا وفخموا كالجبال**»[1] .

❊ ❊ ❊ ❊

بن زيد بن جدعان عن ابن المسيب عنه .

(١)صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٠١)، وقال عنه: إنه حديث حسن لغيره، ورواه البيهقي بإسناد حسن.

٣٧ ـ درجات الجنة وغرفها

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**».

قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟.

قال: «**بلى والذي نفسي بيده؛ رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»(١) .

ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة بنحوه وصححه إلا أنه قال : «**إن أهل الجنة ليتراءون في الغرفة كما تتراءون الكوكب الشرقي أو الكوكب الغربي الغارب في الأفق والطالع في تفاضل الدرجات**»(٢) الحديث.

وفي بعض النسخ : «**والكوكب الغربي أو الغارب على الشك**»، «**الغابر بالغين المعجمة والباء الموحدة: المراد به هنا هو الذاهب الذي تدلى للغروب.**

وعن عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **إن في الجنة لغرفًا يُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها**»، فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: « **لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام**»(٣) .

---

(١)البخاري في الرقاق (٦٠٧١)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٠٥٨، ٥٠٥٩)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢١٨٠٦)،والدارمي في الرقاق (٢٧٠٩)، وفي رواية للبخاري ومسلم: « كما تراءون الكوكب الغارب»، بتقديم الراء على الباء.

(٢)الترمذي في صفة الجنة (٢٤٧٩)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٨١١٦).

(٣)الترمذي في صفة الجنة (٢٤٥٠)، وقال عنه: حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في

قال الحافظ : تقدم من هذا النوع غير ما حديث صحيح في قيام الليل وإطعام الطعام وغير ذلك من حديث أبي مالك عن النبي ﷺ: «**إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام**» وحديث عبد الله بن عمرو بنحوه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «**في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام**»[٢] .

❋ ❋ ❋ ❋

عبدالرحمن بن إسحاق هذا من قِبَل حفظه، وهو كوفي، وعبدالرحمن بن إسحاق مدني وهو أثبت من هذا، وكلاهما في عصر واحد، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٢٦٨).

(١)البخاري في الجهاد والسير (٢٥٨١)، والتوحيد (٦٨٧٣)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٨٠٦٧، ٨١١٩).

(٢)الترمذي في صفة الجنة (٢٤٥٢)، وقال: حديث حسن غريب، والطبراني في الأوسط إلا أنه قال: «ما بين كل درجتين مسيرة خمسمائة عام» .

٣٨ ـ أهل النار .. وتفاوتهم في العذاب وذكر أهونهم عذابا

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال : « **إن أهون أهل النار عذابا رجل في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم**» رواه البخاري ومسلم ولفظه:«**إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يري أن أحد أشد منه عذابا، وإنه لأهونهم عذابًا**».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : «**إن أهون أهل النار عذابا رجل منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه مع إجزاء العذاب، ومنهم من في النار إلى كعبيه مع إجزاء العذاب، ومنهم من في النار إلى ركبتيه مع إجزاء العذاب، ومنهم من قد اغتمر**»، رواه أحمد والبزار، ورواه الصحيح، وهو في مسلم مختصرا:«**إن أدنى أهل النار عذابا رجل منتعل بنعلين يغلي دماغه من حر نعليه**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : «**إن أدنى أهل النار عذابًا الذي له نعلان من نار يغلي منهما دماغه**»[١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**»[٢] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن أدنى أهل النار عذابًا**

---

(١)الطبراني في الأوسط (٦٤٥٣) بإسناد صحيح، وابن حبان في صحيحه .

(٢)مسلم في الإيمان (٣١٢).

لرجل عليه نعلان يغلي منهما دماغه كأن مرجل مسامعه جمر، وأضراسه جمر، وأشفاره لهب النار، وتخرج أحشاء جنبيه من قدميه، وسائرهم كالحب القليل في الماء الكثير فهو يفور»[١] .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : «**منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته**» رواه مسلم، وفي رواية له:«**منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ومنهم من تأخذه إلى عنقه**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : «**إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم، فلفحتهم لفحة، فلم تدع لحما على عظم إلا ألقته على العرقوب**»[٢] .

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى : ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ (الرحمن). قال:«**يجمع بين رأسه ورجليه ثم يقصف كما يقصف الحطب**»[٣] .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قرأ هذه الآية: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ (النساء:٥٦). قال: ياكعب، أخبرني عن تفسيرها، فإن صدقت صدقتك، وإن كذبت رددت عليك، فقال: «**إن جلد ابن آدم يحرق ويجدد في ساعة أو في يوم مقدار ستة آلاف مرة**»، قال: «**صدقت**»[٤] .

وروي أيضًا عن الحسن وهو البصري قال : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

---

(١)رواه البزار مرسلاً بإسناد صحيح .

(٢)الطبراني في الأوسط (٢٨٣) ، والبيهقي مرفوعا، ورواه غيرهما موقوفًا عليه وهو أصح.

(٣)رواه البيهقي موقوفًا.

(٤)رواه البيهقي .

﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ (النساء:٥٦). قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم، قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا بن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له، يا بن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول لا والله يارب، ما مر بى بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»[(١)].

وعن سويد بن غفلة قال: «**إذا أراد الله أن ينسى أهل النار جعل للرجل منهم صندوقا على قدره من نار، لا ينبض منه عرق إلا فيه مسمار من نار، ثم تضرم فيه النار، ثم يقفل بقفل من نار، ثم يجعل ذلك الصندوق في صندوق من نار، ثم يضرم بينهما نار، ثم يقفل بقفل من نار ثم يجعل ذلك الصندوق في صندوق من نار، ثم يضرم بينهما نار، ثم يقفل، ثم يلقى أو يطرح في النار، فذلك قوله:** ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ (الزُمر: ١٦). **وذلك قوله تعالى:** ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ (الأنبياء: ١٠٠). **قال: «فما يرى أن في النار أحدًا غيره»**[(٢)].

قال الحافظ: سويد بن غفلة ولد في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ وهو عام الفيل، وقدم المدينة حين دفنوا النبي ﷺ ولم يره، وتوفي في زمن الحجاج وهو ابن خمس وعشرين وقيل: سبع وعشرين ومائة.

---

(١)مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٥٠٢١)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (١٢٦٣٨).

(٢)رواه البيهقي بإسناد حسن موقوفًا، ورواه أيضًا بنحوه من حديث ابن مسعود بإسناد منقطع.

٣٩ ـ بكـاء وشهيق أهل النـار

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، في قوله عز وجل: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (الزخرف: ٧٧)، قال: يخلى عنهم أربعين عامًا لا يجيبهم، ثم أجابهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (الزخرف)، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ (المؤمنون). قال: فيخلى عنهم مثل الدنيا، ثم أجابهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ (١٠٨). قال: فو الله ما ينبس القوم بعد هذه الكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق»[1].

«**الشهيق**»: في الصدر، و «**الزفير**»: في الحلق.

وقال ابن فارس: الشهيق ضد الزفير؛ لأن الشهيق رد النفس، والزفير إخراج النفس.

وروى البيهقي عن معاوية بن طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (هود). قال: صوت شديد وصوت ضعيف، وقال الحافظ: وتقدم حديث أبي الدرداء وفيه: « **فيقولون: ادعوا مالكًا فيقولون:** ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (الزخرف)، **قال الأعمش: نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك لهم ألف عام.**

قال: فيقولون: ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم، فيقولون: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

(١)ابن أبي الدنيا في صفة النار، رقم الحديث (١٦٨)، باب أهل النار نادوا يا مالك ليقض جـ١/ ١٧٨، والحاكم في باب: ونادوا يا مالك ليقض، رقم الحديث (٨٩٢٣)، جـ٢٠/ ١٨٤، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(المؤمنون)، **قال: فيجيبهم:** ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ **(المؤمنون: ١٠٨).**

قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والويل»[١] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **يُرسَل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم، حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيها السفن لجرت»**[٢] .

ولفظه : قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يا أيها الناس أبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في خدودهم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل ـ يعني الدماء ـ فتقرح العيون...»**[٣] .

* * * *

(١)الترمذي في صفة جهنم (٢٥١١).

(٢)ابن ماجة في الزهد (٤٣١٥)، وأبو يعلىٰ.

(٣)أبو يعلىٰ الموصلي باب : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، جـ٩/ ١٦١، وعبدالله بن المبارك باب: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، جـ١/ ١٢٨، حديث أنس بن مالك، ورواه الحاكم مختصراً عن عبد الله بن قيس مرفوعـًا قال:« إن أهل النار ليبكون حتىٰ لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم مكان الدمع». وقال : صحيح الإسناد .. «الأخدود» بالضم : الشق العظيم في الأرض .

٤٠ـ نذارة في ذكر الحساب وغيره

عن أبي برزة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه**»(١) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه**»(٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال : «**من نوقش الحساب عذب**» قالت: قلت: أليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ (الانشقاق). فقال:«**ذلك العرض**»(٣) .

وعن ابن الزبير رضي الله عنهما يقول : سمعتُ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: سألتُ رسول الله ﷺ عن الحساب اليسير... «**من نوقش الحساب هلك**»(٤).

وعن عتبة بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «**لو أن رجلاً يُجَرُّ على وجهه يوم ولد إلى أن يموت هرما، في مرضاة الله لحقره يوم القيامة**»(٥).

وعن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه ، وكان من أصحاب النبي ﷺ قال : «**لو**

(١)الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٣٤١)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢)الدارمي في المقدمة (٥٣٨)، و البزار والطبراني بإسناد صحيح واللفظ له.

(٣)البخاري في الرقائق (٦٠٥٥)، وأبو داود في الجنائز (٢٦٨٩)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢٣٨١٠).

(٤)أحمد في باقي مسند الأنصار (٢٤٣٤٠)، والبزار والطبراني بإسناد صحيح.

(٥)الطبراني في الكبير (١٣٧٥٠) جـ١٢/ ٥٠، ورواته ثقات إلا بقية.

أن رجلاً خرَّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا في طاعة الله لحقره ذلك اليوم ولود أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب»[١].

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاث دواوين؛ ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله لأصغر نعمة: ــ أحسبه قال: في ديوان النعم ــ خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تنحي وتقول: وعزتك ما استوفيت، وتبقى الذنوب والنعم، قال: فإذا أراد الله أن يرحم قال: ياعبدي، قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك ـ أحسبه قال: ــ ووهبت لك نعمي**»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن: رجلاً من الحبشة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فضلتم علينا بالألوان والنبوة، أفرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به، وعملت بمثل ما عملت به إني لكائن معك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «**نعم**»، ثم قال النبي ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله كتب له مائة ألف حسنة**». فقال رجل: يا رسول الله، كيف نهلك بعد هذا؟

فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده إن الرجل ليجيء يوم القيامة بعمل لو وضع على جبل لأثقله، فتقوم النعمة من نعم الله، فتكاد تستنفذ ذلك كله لولا ما يتفضل الله من رحمته**»، ثم نزلت: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ..﴾ (الإنسان)، إلى قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ (الإنسان).

---

(١) أحمد في مسند الشاميين (١٦٩٩٢)، والطبراني في الكبير (١٥٩٠٢).

(٢) ضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٩٦) كتاب البعث وأهوال القيامة (جـ٢/ ٢٢١) حديث موضوع.

فقال الحبشي: يا رسول الله، وهل ترى عيني في الجنة مثل ما ترى عينك؟

فقال النبي ﷺ: «**نعم**» فبكي الحبشي حتى فاضت نفسه.

قال ابن عمر: فأنا رأيت النبي ﷺ يدليه في حفرته[١] .

ورُوي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**يبعث الله يوم القيامة عبدًا لا ذنب له فيقول الله: بأي الأمرين أحب إليك؛ أن أجزيك بعملك، أو بنعمتي عندك؟ قال: رب، إنك تعلم أني لم أعصك. قال: خذوا عبدي بنعمة من نعمي. فما تبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة، فيقول: رب بنعمتك ورحمتك فيقول بنعمتي ورحمتي**»[٢] .

وعن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**خرج من عندي خليلي جبريل آنفًا فقال: يا محمد، والذي بعثك بالحق، إن لله عبدًا من عبيده عبد الله تعالى خمسمائة سنة على رأس جبل في البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعًا في ثلاثين ذراعًا، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله تعالى له عينان عذبة بعرض الأصبع تبض بماء عذب فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج له كل ليلة رمانة. فتغذيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء، وأخذ تلك الرمانة فأكلها، ثم قام لصلاته فسأل ربه عز وجل عند وقت الأجل أن يقبضه ساجدًا، وأن لا يجعل للأرض ولا لشيء يفسده عليه سبيلاً حتى بعثه وهو ساجد قال: ففعل، فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا، فنجد له في العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيقول له الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول**

---

(١)رواه الطبراني من رواية أيوب بن عتبة.

(٢)الطبراني في الكبير (١٧٦٠٦).

رب بل بعملي. فيقول الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: يارب بل بعملي، فيقول الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: رب بل بعملي، فيقول الله عز وجل للملائكة: قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله. فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه، فيقول: أدخلوا عبدي النار، قال: فيجر إلى النار فينادي: رب برحمتك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه فيقول: يا عبدي، من خلقك ولم تك شيئا؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: كان ذلك من قِبَلك أو برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك، فيقول: من قواك لعبادة خمسمائة عام؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من أنزلك في جبل وسط اللجة، وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح، وأخرج لك كل ليلة رمانة، وإنما تخرج مرة في السنة؟ وسألتني أن أقبضك ساجدًا ففعلتُ ذلك بك؟ فيقول: أنت يا رب. فقال الله عز وجل: فذلك برحمتي وبرحمتي أدخلك الجنة، أدخلوا عبدي الجنة، فنعم العبد كنت يا عبدي، فيدخله الله الجنة.

قال جبريل عليه السلام : إنما الأشياء برحمة الله تعالى يا محمد»[(١)] .

وعن عائشة زوج النبي ﷺ، رضي الله عنها أنها كانت تقول: قال رسول الله ﷺ : «**سددوا، وقاربوا، وأبشروا، فإنه لن يدخل أحدًا الجنة عمله**». قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة**»[(٢)] .

---

(١)الحاكم في التوبة والإنابة (٧٦٣٧) من حديث سليمان بن هرم عن محمد بن المنكدر عن جابر وقال : صحيح الإسناد، وسليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام ، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين .

(٢)البخاري في الرقاق (٥٩٨٦)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٥٠٤٣)، وأحمد في باقي مسند الأنصار (٢٣٧٩٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «**لن يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:«**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**» وقال بيده فوق رأسه[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[٢] .

* * * *

(١)أحمد في باقي مسند المكثرين (١١٠٦٢) بإسناد حسن.

(٢)مسلم في البر والصلة (٤٦٧٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٤٤)،وأحمد في باقي مسند المكثرين (٧٦٥٥، ٨٩٦٥).

خاتــمـــة

الزهـد كلمة بارقة نسمعها ونقرأها ونعرفها لفظًا، بينما هي تستحق منا تعقلاً وتفهمًا بمعناها ومقتضاها؛ لأن العاقل لا يمارس إلا ما يعقل، ولا يؤمن إلا بما يصدق، ولا يركن إلا بما يقع في قلبه، وعليه فإن حقيقة الزهد هي تشاغل القلب بالآخرة مع الأخذ بحظ النفس في الدنيا، وخلال هذه الأربعينيات حاولنا أن نتناول موضوعات الزهد ومجالاته وشأن الزاهدين وأوصافهم وكلامهم وحكايات عنهم. لعل الصورة تتضح ويتمثل الناس الزهد عن فهم له، بلا إفراط ولا تفريط، مقتدين بسيد الزاهدين ﷺ ..

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

❊ ❊ ❊ ❊

الفهرس

الإهداء نثرًا ....

الإهداء شعرًا ....

المقدمة ....

المبحث الأول : بين ضيق الدنيا ورحاب الآخرة ....

١ ـ سياحة في رحاب عالم الزهد والرقائق ....

٢ ـ خذوا أهبتكم ، فالركب راحل ....

٣ ـ جواهر، ولكن مَنْ يعمل بها ؟ ....

٤ ـ زادُ الآخرة ....

المبحث الثاني : كُن ربانيًا ....

٥ ـ قلوب مع الله (ربانية فياضة بتقوى الله) ....

٦ ـ من صفات الرباني ....

٧ـ كن عابدًا متوكلاً .. تكن ربانيًا ....

٨ ـ التوكل وفلسفته ....

المبحث الثالث : جواهر من الوعظ ....

٩ ـ تطواف في حدائق الحكم ....

المبحث الرابع : التفكر والاعتبار ....

١٠ ـ العقل آلة الاعتبار ....

١١ ـ كيف نتفكر ونعتبر؟ ....

١٢ ـ من أسرار الحياة ....

١٣ ـ التفضيل والسبق في عبودية الاختيار لا الاضطرار ....

١٤ ـ فاعتبروا يا أولي الأبصار ....

المبحث الخامس : عقد نضيد في غرر التحاميد للَّه ....

١٥ ـ من غُرَرِ التَّحاميد ....

١٦ ـ مقدمة في إجلال الله ....

١٧ ـ مقدمة في تعظيم الله ....

١٨ ـ مقدمة في حمد الله وتمجيده ....

المبحث السادس : آداب قرآنية ....

١٩ ـ لزوم كتاب الله والتحذير من البدعة ....

٢٠ ـ رائعة في أخلاق أهل القرآن ....

المبحث السابع : التوابون ....

٢١ ـ فرح الله بتوبة عبده ....

٢٢ ـ طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ ....

٢٣ ـ ذكر التوابين من الصالحين ....

٢٤ ـ من توبة السلف والمشاهير ....

المبحث الثامن : مهلكات السجايا والصفات ....

٢٥ ـ الغرور أقسامه ودرجاته ....

٢٦ ـ الاغترار واقع بالعلماء والعباد ....

٢٧ ـ ذم الكبر والعجب، نعوذ بالله منهما ....

٢٨ ـ ذم العُجب ....

المبحث التاسع : محبة الله والرضا به ....

٢٩ ـ المحبة غاية،ومقام نبيل يسعى إليه ....

٣٠ ـ بيان الأسباب المعنوية لحب الله تعالى ....

٣١ ـ الطمأنينة والسكينة ،وعظم منزلتهما ....

٣٢ ـ الاستبشار والسرور بالله ....

المبحث العاشر : الصبر ....

٣٣ ـ ذخيرة الصبر ....

٣٤ ـ أحاديث في الترغيب في الصبر ....

خاتمة في : الترغيب والترهيب ....

٣٥ ـ لطيفة في أدنى أهل الجنة منزلة ....

٣٦ ـ الترغيب في الجنة ونعيمها ....

٣٧ ـ درجات الجنة وغرفها ....

٣٨ ـ أهل النار وتفاوتهم في العذاب، وذكر أهونهم عذابًا ....

٣٩ ـ بكاء وشهيق أهل النار ....

٤٠ ـ نذارة في ذكر الحساب وغيره ....

الخاتمة ....

الفهرس ....

هذا الكتاب

وَهم من ظن أن الوقت ليس وقت مخاطبة القلوب ، وإنما هو وقت الأسباب والمسببات . فنقول صدقت، إن حالنا يتغير بتغير الأسباب والمسببات الدنيوية، ولكن كيف تتغير هذه الأسباب والمسببات، إنها تتغير في تصوراتنا ، وفي وعينا ، وفي قلوبنا ثم تنعكس بعد ذلك على ظاهر حياتنا .

يقول الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد١١ .

إذن لنبتدئ بالباطن نهذبه . ندربه . ونقربه لربه ونميط عنه لثام الدنيا ، إلى جوهر التقوى ، ومن ثم كانت لنا هذه الوقفة الزهدية في هذا المجموع المسمى ب (الأربعون الزهدية) فاحرص عليه ، فلعل فيه خيرا .

والله ولي التوفيق

المؤلف



مؤسسة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت : ت/٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦ ص. ب : ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com